جائزة دبي الثقافية للإبـ

الدورة الخامسة ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧

البار الأمريكي

مجموعة قصصية

المركز الأول في القصة القصيرة



وارد بدر السالم

كتاب دبي الثقافية 13

كتاب دبي الثقافية يصدر عن مجلة دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
ناصر عراق

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
عمرو المعلاوي

الإعلانات والتسويق
نبيل العاصي

مراقبة الطباعة والإنتاج
خير الدين خزام

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

البار الأمريكي

مجموعة قصصية

وارد بدر السالم

المركز الأول في القصة القصيرة

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.[illegible]

■ التحرير والإدارة - دبي:
الإمارات العربية المتحدة - دبي
منطقة الصفا - شارع الشيخ زايد
هاتف ٣٤٢٢٢٢٤
فاكس: ٣٤٣٢٢٢٠ - ٣٤٢١٩٣٩
أبوظبي هاتف ٠٢/٦٢٦٨٨٩٢
فاكس: ٠٢/٦٢٦٨٨٩٣
■ الإعلانات والتسويق:
دبي - شارع الشيخ زايد - برج المدينة (٢)
مكتب ٤٠٣
ص.ب: ٢٩٠٩٦
هاتف ٣٢٢٠١٠٧ - فاكس ٣٢٢٠١٠٩
E-mail: marketing@[illegible]
■ التوزيع والاشتراكات
هاتف [illegible]
فاكس [illegible]

الطبعة الأولى نوفمبر ٢٠٠٧

توطئة

بقلم: سيف المري

يسعدني ويسعد جميع العاملين في دار «الصدى» ومجلة «دبي الثقافية»، أن نقدم الأعمال الفائزة في مسابقة «دبي الثقافية» التي تهدف إلى خدمة الحركة الثقافية العربية، وتضيف جديداً إليها: إيماناً منّا بأن التغيير للأفضل يبدأ مع واقع ثقافيَ جديد، ووعي ثقافي متفتح وقابل لفكر التعدّد، ومؤمن بأن الإنسان هو محور التنمية. وانطلاقاً من كل ذلك، تأتي مبادرتنا باحتضان الأقلام الجادة والمخلصة وإعطائها فضاءً جديداً ضمن أفق مفتوح للتفكير والعطاء والإبداع بشكل غير مشروط، أو مقيّد بأية قيود تحدّ من انطلاقته.

ونحن في مجلة «دبي الثقافية» إذ نقدم هذه الإصدارات الفائزة: فإننا فقط، نوقد شمعة على طريق الأمة بدل أن نجلس ونلعن الظلام.. وأعتقد أن المثقف العربيَ لديه حجم هائل من الإبداع أكثر بكثير مما تم اكتشافه، ولكن الواقع الاقتصادي العربي يحدّ، للأسف، ويحول دون نشوء ثقافة عميقة تليق بحجم الأمة وإرثها الحضاري العظيم، ويعوق هذا الواقع كل جهود التنوير المبذولة من قبل أصحاب الفكر. إلا أنه في نهاية المطاف ستولد ثقافة عربية جديدة مشرقة: لأنه لا يعقل أن تكون أمة عظيمة بهذا الحجم وتظل مأزومة إلى هذا الحد، وهذا هو دور المثقفين الجدد الذين تقع على كاهلهم مسؤولية الخلق والإبداع، ومهمة مؤسسات المجتمع المدني التي لو ساهمت خلاله هذه المؤسسات، كل منها ولو بقليل من الجهد كما تحاول «دبي الثقافية» أن تفعل، لكان واقعنا المعاش أفضل بكثير.. ونعود إلى حديث الشمعة، فلكم أن تتخيلوا أننا كأمة يتعدى سكانها المئتي مليون إنسان، لو أن كل واحد منا في ذات الليلة أشعل شمعة واحدة وخرج بها إلى الطريق. فلا شك أن أكثر من مئتي مليون شمعة ستكون قادرة على إضاءة عتمة ليلنا العربي!

وختاماً فإنني أشكر جميع من ساهم في إنجاح هذه الدورة، بدءاً بالزملاء العاملين في «دبي الثقافية»، ومروراً بلجان التحكيم وانتهاءً بالقارئ الكريم.. ويسعدني في الختام أن أهنئ أصحاب الأعمال الفائزة التي تقدمها المجلة هدية رمزية، ومساهمة منها في التعريف بإبداعاتهم.. وكلنا رجاء أن نكون قد قدمنا شيئاً للقارئ العربي.

الجوائز والإبداع وتطور الأمم

بقلم: ناصر عراق

حسب علمي، فإنه ما من أمة استطاعت أن تستنشق عطر التقدم الفوّاح من دون أن تحتفي بمبدعيها وتضع إنجازاتهم في ركن كريم من قلبها؛ فتطوّر الشعوب ينهض دوماً على خيال أدبائها وعقل علمائها، فضلاً عن حكمة فلاسفتها ومفكريها وإرادة قادتها وساستها، لذا كان من الضروري أن نشرع في إصدار النصوص الفائزة بالمراكز الأولى في «جائزة دبي الثقافية للإبداع» - الدورة الخامسة (٢٠٠٦/٢٠٠٧) حتى تستقيم رؤيتنا لدور الأدب في إنهاض الأمم، مع الأخذ في الاعتبار أن آلية إصدار الكتب ليست أمراً غريباً علينا، فقد أعلنها ورسّخها المدير العام رئيس التحرير الأستاذ سيف المري، فور إطلاق العدد الأول من مجلة «الصدى» في ١٩٩٩/٤/٤، إذ أصدرنا باكورة مطبوعاتنا تحت اسم «كتاب الصدى» - وكان يحمل عنوان «نجيب محفوظ قيصر الرواية العربية» - ثم توالت الإصدارات بعد ذلك متضمنة النصوص الفائزة في «جائزة الصدى للمبدعين» التي تحوّل اسمها إلى «جائزة دبي الثقافية للإبداع» مع خروج العدد الأول من مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤ إلى الأسواق.

هذا الإصرار على أن ترى الأعمال الفائزة النور لهو أمر جدير باهتمامنا: إذ يؤكد حرص «دبي الثقافية» على الحفاوة بالكلمة الجديدة والنص المتميز والكاتب المتفرد، كما يؤكد أن الفوز في المسابقات لا ينبغي أن يتوقف على منح المال لصاحب النصيب والموهبة فحسب، بل يجب أن يتم نشر عمله الذي خطف المركز الأول على أوسع نطاق حتى يستمتع القراء بما أنجز وأبدع.

لقد لعبت الجوائز دوماً دوراً رئيساً في شحذ الهمم وإطلاق الطاقات، وأزعم أن جائزة «دبي الثقافية للإبداع» كان لها دور كبير في اكتشاف المواهب قليلة الحظ في عالمنا العربي، وتسليط الضوء على مبدعين متميزين خاصمتهم الشهرة. وها هو النص الفائز بالمركز الأول في الدورة الخامسة بين يديك عزيزي القارئ، فاقرأ.. وتمتع..

الفهرس

صدر للمؤلف:

- ذلك البكاء الجميل / قصص قصيرة / بغداد ١٩٨٣
- أصابع الصفصاف (قصص قصيرة) / بغداد ١٩٨٧
- جذوع في العراء (قصص قصيرة) / بغداد ١٩٨٧
- بيتنا (قصص قصيرة) بغداد ١٩٩٠
- انفجار دمعة (يوميات حرب الخليج عام ١٩٩١) / بغداد / طبعة أولى عام ١٩٩٤ / وطبعة ثانية في القاهرة عام ١٩٩٨
- المعدان (قصص قصيرة) بغداد / ١٩٩٥
- مولد غراب (رواية) بغداد ٢٠٠٠ / القاهرة / طبعة ثانية ٢٠٠٤
- فصول الحصار (قصيدة) بغداد ٢٠٠٠
- انفجار قلب (رسائل حب) / بغداد/ ٢٠٠٠
- جنة العميان (نصوص) بغداد ٢٠٠٠
- عكس المقص (قصص قصيرة) / دمشق / ٢٠٠١
- طبور الغاق (رواية) / بغداد / ٢٠٠٢
- شبيه الخنزير (رواية) / القاهرة / ٢٠٠٣
- مولد غراب (رواية) / القاهرة / ٢٠٠٥
- آخر حروب الرئيس / ٢٠٠٦ / نشر في موقع كيكا
- البار الأمريكي (قصص) / دبي ٢٠٠٧

البحر يخرج من مرآة

ثمة يد ماهرة صنعت البحر وجعلته في أعلى درجات الهدوء: بحرٌ صافٍ يخرج من مرآة. موج أزرق خفيف كقطعة قماش براقة، يعكس سماء صافية هي الأخرى، لكن الصيادين لا يرونها بسبب المساحة الصغيرة التي يشغلها كل البحر في أعلى المكان المتاح، الأمر الذي جعل تلك اليد الماهرة أن تضع الشمس البيضاء أسفل البحر من الجهة اليسرى، في محاولة لتغيير نمط الطبيعة الثابت: البحر أعلى المشهد والشمس أسفله، تبث شعاعها باستكانة ورهافة.

صيادون يتناوبون على ساحل البحر بربط ثلاثة مراكب متراقصة وثلاث شِباك غطتها رائحة السمك: متشابهو الملامح والأطوال والملابس. لا يتكلمون كثيراً. يبدون منشغلين بهموم لا يمكن التحقق منها الآن؛ أكبرهم سناً أفتاهم، لكنهم في لحظة التوثيق يبدون متكافلين ومتضامنين لقدر الطبيعة الهادئة: بحرٌ وشمسٌ استبدلا دلالتيهما ليجرّبا شكلاً آخر من الحياة.

على نحو مباغت تنبثق من البحر حورية لها شكل الموج: زرقاء كعين قطة سيامية، ممشوقة كسمكة فتيّة، بزغت بشكل مثير وتعالت وقتاً بدا ساحراً للصيادين الثلاثة الذين انعقدت ألسنتهم وغمرتهم الدهشة الممتزجة بخوفٍ طارئ. بثت في الصمت عطراً بحرياً غريباً لم تألفه

أنوف الصيادين.
انزلقت الحورية الزرقاء إلى وسط المكان، لتكون مرتكزاً لمشهد أليف: هناك بيانو مهجور في مركز الحياة الصغيرة تجرأت عليه عناكب البحر وتجولت على أزراره، لم يلفت أنظار الصيادين طيلة الزمن الملون الذي يعيش فيه الجميع.
الحورية الزرقاء تغير الحالة الصامتة إلى موسيقى خفيفة، كأنها رياح قادمة من أعماق البحر، فتهتز المراكب الثلاثة في رقصة واحدة، كما لو أن روحاً استشرت فيها، بينما ازداد الصيادون صمتاً في هذه اللحظة المعطرة بالأحلام.
ما تزال الشمس أسفل البحر، لكنها الآن تستجيب لنداء الحورية الزرقاء : فتتحرك إلى جهة اليمين، مخلفة في موقعها بقعة بيضاء يختلط فيها طيف أزرق صبغها قبل قليل.
الصيادون الثملون بالموسيقى الزرقاء نزلوا إلى البحر بأطوالهم المتشابهة، تنعكس عليهم شمس اليمين فتزيدهم بياضاً، فيما بقيت الحورية تعزف لحن البحر بريح تتقشر كالموج الأزرق الخفيف.
يطربها سحرُ اللحظة عناكبُ البحر؛ وتهيجها موسيقى الصمت الحالمة : فتتراقص على رمل أملس وترسم خطوطاً متوترة بين أصابع حورية البحر التي هزت أركان المكان وفضت بكارته.
الحورية الثانية تهادت رشيقة ومرت كطيف شفيف على رؤوس الصيادين الثملين بغموض الواقعة الجميلة، متجهة إلى الشمس الساكنة. كانت بنفسجية ومعشبة: عشب البحر منعقد عليها كإكليل يتقطر الماء الأخضر من ذؤاباته.
تتحرك الشمس إلى وسط المكان وتتقوس لتضم جسد الحورية البنفسجية التي ذابت بين ريحها البيضاء. العناكب تزحف إلى البحر. الصيادون الثلاثة يخرجون من البحر. حورية البيانو تعزف بأصابع غير مرئية. البيانو المهجور يتناغم مع سحر المشهد العاصف بالسكون

المتحرك.
يمكن الآن رؤية قمر فضي برّاق بحجم صحن صغير في أعلى المكان من يمينه. انكشف في لحظة تحرك الشمس إلى وسط المشهد الأزرق. القمر الصغير كعين بيضاء يطيل النظر إلى الصيادين الثلاثة المأخوذين بسحر الحوريتين.
البحر يخرج من مرآة، وحورية ثالثة خضراء تخاصر نثيث ماء خرج معها من سرة القاع، تخطف عيون الصيادين وتبهر الشمس والبيانو المهجور. حورية من عشب وزنبق أخضر فاقع.
الصيادون الثلاثة صعدوا المراكب الثلاثة. الحوريات الثلاث التقين في عقدة المكان فاختلطت ألوانهن القزحية في طيف يلتمع على مدار الوقت.
عندما أبحر الصيادون الثلاثة وأخذوا يبتعدون في عمق البحر؛ تبعتهم ثلاث حوريات وهنَّ يملأن الفضاء ألواناً وبهجة وخفة وضوءاً. تلاقحت ألوانهنَّ البراقة في عرس الصيادين الثملين، فتحركت قماشة الماء الزرقاء واحتك الموج بالمراكب المبحرة إلى المجهول، وتلون القمر الفضي لأول مرة بألوان الحوريات، فبدت عينه اللاقطة بؤرة جامعة لاختلاط الألوان.
تلاشت المراكب وبانت نقاطاً لامعة بعيدة واختفت الحوريات في نقطة مجهولة، لكنها ظلت مصدر إشعاع يتضامن مع عناصر المكان الثابتة. يتبدل المشهد كلياً، وتعود الطبيعة إلى نمطها المعتاد، كأنما تلك اليد الماهرة التي تمردت على ثوابت الطبيعة، أرادت أن تبعث سراً من الأسرار في إقامة العلاقة الممكنة بين نمط وآخر؛ وتقلب ميزان الظواهر بأشكالها المألوفة ؛ وهكذا بقي صحن القمر الصغير على يمين المكان، في عليائه البعيدة ينظر إلى التبدلات السريعة، وظل البيانو المهجور على الرمل البارد، غير أن البحر الذي اختفت فيه الحوريات والصيادون نزل إلى أسفل المكان، بعد أن كان معلقاً، بينما صعدت الشمس البيضاء

إلى أعلى المشهد من جهة اليسار، لتبدو الصورة أكثر وضوحاً هذه المرَة:

بيانو

ورمل

وبحر

وشمس

وقمر أبيض....

وحوريات ثلاث اخترعتها ثلاث ذاكرات متعبات في صمت البحر الطويل.

١٣/ ٢ / ٢٠٠٥ أبو ظبي

ثلاثة كلابٍ وغرابٌ أخرس

في الأفق ضبابٌ يحاصر شمساً تحاول الانعتاق ولكن دون جدوى: فما تزال كتلة كبيرة من اللون الأبيض تفترش الأفق البعيد.

أسفل الأفق من جهة اليمين «أنا» بهيئة شبحٍ ضامر، وإلى مسافة قريبة غزالة صرعها سهمٌ طائش.

بين الغزالة والشبح الضامر رجلٌ شرس الطباع، أعطى ظهره إلى كل شيء متجهاً إلى الضباب كأنما هو في طريقه لأن يلج تلك الكتلة المتكاثفة.

أسفل الأفق من جهة اليسار «أنا» أيضاً ولكن بهيئة جندي فقد ساقه ولا تبدو معالم الألم مشخصة بشكل يوحي أن الشبح الضامر الهابط من جهة اليمين هو جندي المعركة الذي بقي يقاتل وحده في أتون محتدم وهو يهبط من جهة اليسار.

ثلاثة كلاب توزعت بين الأفق المضبب، وغراب أخرس يحط على شجرة غير موجودة، لكن وعي اللوحة الآن يمكن أن يشير إلى وجود شجرة، ويتجسد هذا الوعي في نظرة الجندي الوحيد صوب الغراب الأخرس، هي نظرة تبحث عن ظل على الأرجح، لكن الغراب هو الآخر يتماثل مع الغزالة القتيلة في نظرة جائعة، غير أن الدخان القادم من الأفق يشكل حاجزاً نسبياً بين هذه الموجودات المتضامنة في مصيرها الأعزل.

تحت الشجرة غير الموجودة حطام لشيء مجهول، يتناثر في كل لحظة من لحظات الصمت الذي يحيط بالكائنات : بينما الشمس تزداد اختناقاً خلف الأفق وغيمة الضباب تتكاثف، كما لو أنها تريد أن تغطي كل المشهد الصامت.

الكلاب الثلاثة تغير مواقعها، وعادة ما تترك بينها مسافة غامضة يشغلها ناي مهجور انثلم مبسمهُ وتغطي جزءٌ منه بأعشاب محترقة، وفي تحركها غير المنتظم تترك عدداً من النايات المنثلمة، وهذا ما يفسر سر الغناء المشروخ الذي ينبثق بين لحظة ولحظة من الصمت الجنائزي الذي يحيط بالمكان، فيتحرك الغراب الأخرس، يرفع جناحيه كيدين قصيرتين محاولاً الهبوط على الغزالة الميتة، غير أنه لا يفعل ذلك في اللحظة الأخيرة، حينما يرى الجندي الضامر، مقطوع الساق، يتحرك هو الآخر باتجاه زاوية غير محددة من مشهد الصمت الذي تبدده النايات المثلومة كلما كان ذلك ممكناً.

قريباً من الأفق الصعب، ومن جهة وسطية تماماً تتوضح على نحوٍ ما امرأة متشحة بالسواد؛ فيرتبك المشهد قليلاً: النايات تغني بصعوبة، الجندي ينكمش وهو يلم ساقه المقطوعة، الغزالة تتحرك، الغراب الأخرس يحتفظ بجناحيه مضمومين، الرجل الشرس الطباع يلتفت ليتحقق من الأمر، الكلاب الثلاثة تنكفئ متراجعة إلى أي اتجاه، الشبح الضامر «أي أنا» يفتح دفتراً ويبدأ بالكتابة، بينما الأفق الأبيض يسودَ تقريباً.

تتقدم المرأة في فضاء محترق وداكن، تتبعها هالة غير مرئية من فراشات ونوارس بحجم الأصابع وهي تؤشر إلى السماء غير الموجودة. دمٌ ينزلق من أعلى الأفق ويتصل بساق الجندي المقطوعة، ثم يتمادى إلى سرة الغزالة القتيلة، يتلون الغراب بلون أحمر وتتساقط أوراقٌ لشجرةٍ لا يمكن أن تكون مرئية، وتعود الكلاب الثلاثة من اتجاهات غير مكشوفة وهي ملطخة بالدماء، يتبعها الشبح الضامر حاملاً ساق

الجندي المقطوعة، فيما تتململ الغزالة القتيلة كأنما فيض الدم أخذ يخنقها. أما الرجل الشرس الطباع فإنه يواصل تقدمه باتجاه كتلة الضباب الثقيلة.

المرأة تتوارى قليلاً، تتبعها فراشاتها ونوارسُها الصغيرة، بينما الشبح الضامر يلتقط لها آخر صورة وهو يدوِّن في دفتره لحظة الغياب المفاجئ لها.

يشرع الغراب الأخرس بالطيران، تنبحه النايات بصوت مشروخ، بينما الرجل الشرس الطباع يتقدم إلى أفقه البعيد رغم الرياح التي تهب شديدة، معفرة بالدخان ورائحة الضياع والخراب والموت والدم، غير أن الغراب الأخرس يضمحل وتتهاوى قدرته على الطيران من جديد، في الوقت ذاته يُسمع صوت الجندي المقطوع الساق وهو يغني بعناء، ترافقه النايات في سمفونية العذاب وهي تنشد له مجداً كاذباً وبطولة مزيفة.

الكلاب الثلاثة تتفرق في المشهد وقد تختفي، لكن ظلالها تبقى مع الجو المتوتر في أفقه الغامق البعيد، وحين يواجه الرجل الشرس الطباع قوة عاتية من الريح يتراجع قليلاً، خطوة أو خطوتين، بينما تظهر امرأة متشحة بالبياض، قد تكون ذات المرأة المتشحة بالسواد، يرافقها الشبح الضامر «أي أنا» محاولاً تدوين تمتماتها ونشيجها في دفتره المغبر، والأفق البعيد المهيمن يزداد قتامة، والرجل الشرس الطباع يتقدم ثانية خطوة أو خطوتين، والغراب الأخرس يتهيأ للطيران، فيما بقيت الغزالة القتيلة راكدة حتى هذه اللحظة.

طفل ينبثق من عتمة غير منظورة. ولا يشكل وجوده أي خرق لهدنة العالم المطبق؛ حتى النايات ما عادت تغني كثيراً؛ حتى الرياح الشديدة خفتت.. صمت مخيف يلف المكان. طفلُ العتمة يقف بنظرات شاردة: بدا للوهلة الأولى عارياً. سقطت ريشة حمراء بشكل شاقولي، وتبعتها ثانية، تهادت وهي ترسم أنصاف أقواس قبل أن تستقر أمام الطفل

العـاري، فـيمـا ظل الـغراب يـحـمـلـق بـريشـتـيـه الحمراوين وعـيـنـاه الصغيرتـان تحتقنان بعلامات ذهول. تفحص جسده بقلق وخلع ريشة حمراء ثالثة وألقاها بعصبية، فنبتت على جسد الغزالة القتيلة كسهم صغير.

يتدخل الآن طائر صغير بحجم التمرة ويقف مباشرة على رأس طفل العتمة. كان مذعوراً كما لو أن هناك من يطارده، خلعه الطفل من على رأسه كأنه يخلع قبضة صغيرة من شعره، فتلاشى الطائر في قبضة الطفل وانسحق تماماً كفقاعة بيضاء.

يتقدم الرجل ذو الطباع الشرسة باتجاه أفقٍ بات كأنهُ حجاب مغلق. يتقصى أثره الشبح الضامر وهو يحمل ساق الجندي. يتوقفان. يميل الأول بجسده دون أن يتبين شكل وجهه. والشبح الضامر « أي أنا» يناوله الساق ويحثه على اختراق كتلة الضباب التي ازدادت سواداً وصلابة.

جندي المعركة الوحيد يرسم بشفتيه لوحة العطش. الغراب الأخرس يهبط بشكل صاروخي مفاجئ على الجندي الجريح وينقض على وسام الشجاعة المعلق في رقبته وينتزعه دون عناء.

الكلاب الثلاثة تظهر وتختفي كلياً. الغراب الأخرس يفر من المشهد معلقاً على رقبته وسام الشجاعة الأخير، كان ريشه الأحمر يتساقط، فيملأ الفضاء المتوتر بأقواس من الدماء اليابسة، كان الغراب الأخرس عارياً: كان كتلة من لحم قبيح تتوارى تماماً . الطفل العاري يتلاشى هو الآخر. والأفق أسود.

«أنا » أي الشبح الضامر أو الجندي العطشان أراقب المشهد: الرجل ذو الطباع الشرسة يتقدم رافعاً بكلتا يديه ساق الجندي وهو يخترق كتلة الضباب الأسود، مواجهاً ريحاً سوداء عنيفة تخالطها نارٌ ملتهبة، فيما تتململ الغزالة من جديد: تفتح عينيها: لا ترى إلا أفقاً مغبراً وريحاً عاتية: تنزع ريشة الغراب الأخرس الحمراء وتسحب بفكيها السهم

الطائش الذي قتلها منذ بدء المشهد وتقف متعبة.

الشبح الضامر«أي أنا» يدون:

الرجل حامل الساق ينجح باختراق كتل الظلام المختلطة بالنار، تتبعه الغزالة القادمة من الموت برقصة رشيقة وسريعة. الرجل يضرب كتل الظلام بساق الجندي ويفتح ثغرات في ركن من أركان اللوحة. تهب ريح طيبة وينفتح ذلك الركن عن دفق عجيب من ضوء كان محتبساً زمناً طويلاً. يتشقق الركن المتعفن ويتسع ويتسع، فينغمر المكان بشلالات ضوئية ملونة تكشف هول ما كان يجري..

أبو ظبي ١٢/ ٢ / ٢٠٠٥

صلعة الثور الكاروليني

بدا الزنجي ذو الرأس الكروي متوتراً وذا شهية مدمرة تفضحها عينا الثور الشبق في وجهه العريض. الثور الأسود يأخذ نصف مساحة المائدة : فيما كانت امرأة بنفسجية غير واضحة المعالم تماماً، بسبب استدارتها النصفية، تنظر إليه بانشداه وخوف؛ ولم يظهر منها غير خدٍ مزهر وزاوية لشفة حمراء، لكنها لم تستطع أن تخفي امتقاعها الملذ من هذا الثور الكاسر، كأنما تتقصد إيذاءه.

بينهما في خلفية الصالة رجل أحمر ينظر بتحفظ وفضول. عدا ذلك فإن الفضاء المتبقي مشتبك بألوان فاترة لا تفصح عن مزيد من الوجوه والحركات إلا من هؤلاء الثلاثة الذين جمعتهم أصابع لم تتقن التركيز على جماليات المكان ولا توزيع الألوان بنسب معقولة، لذا يبدو الثلاثة يتباعدون تلقائياً؛ يتبادلون النظرات الشبقية المنبثة من عيني الثور وهما تحمرّان شيئاً فشيئاً، فيما كانت المرأة البنفسجية تلوذ بنفسها من تلك النظرات الحيوانية التي زادها شبقاً المزيدُ من كؤوس النبيذ الأمريكي الخالص. فاحتمت بتلك الاستدارة النصفية وغطت جزءاً من وجهها حروف متلاحقة ملأت الكثير من الفراغات.

صلعة الزنجي تعكس حزمة صغيرة من لون المرأة البنفسجي، فتبدو كلطخة لم يستطع الرأس الكروي امتصاصها. كذلك انعكست على شحمة

أذنه اليسرى نُضارة الرجل الأحمر، فزينتها بخيط قرمزي قصير بدا وكأنه منبثق من جرح صغير، فيما تلألأ قرط ذهبي بعد نهاية الجرح تماماً. بينما كان أنفه غليظاً ومنسحباً من موضعه حتى يبدو منخراه كفوهتين معتمتين، ليترك مساحة غزيرة لشاربه ذي اللون الأسود الكاذب، وهو ينتهي على جدار من شفتين غليظتين مهيأتين لشفط المرأة البنفسجية الحذرة.

زجاجة النبيذ الأمريكي الخالص مستدقة. وخلف الألوان الفاترة حياة محتقنة غير ملحوظة، وبالكاد يمكن فرز رجل شرقي ينظر هو الآخر إلى مشهد الشبق بانشداه، كأنما يأسف لأيام كثيرة ضاعت منه وإلى الأبد في أتون حروبٍ أو مجاعاتٍ أو حصار طويل، كما يمكن ملاحظة غلالة من ألوان باهتة أتت على خلفية الوجوه الثلاثة وسيكون بالإمكان إزاحتها لتكشف عما وراءها من حيوات ؛ لكن وجه الثور المحتقن هيمن على نبض الحياة السرية في المكان إلا من ذاك الرجل الذي يأسف لأيامه الكثيرة الضائعة في الحروب أو غيرها وقد اخترق ستار الألوان وشارك الثلاثة في الحضور الشبقي الشهي.

هنا وهناك ثمة حروف متعرجة، لكنها تلتحق ببعضها كأنما تؤازر الفراغات المضببة، غير أنها، كما يبدو، كانت من ضرورات التسجيل الواقعي لمرحلة يمكن أن تفهم بسهولة؛ فبعد أن تلتحق الكلمات ببعضها تتشكل جمل قصيرة، ومضاتها خاطفة ومباشرة، تعين على تسجيل الواقعة وتنتهي إلى الأسفل بتوقيع الشاعر لانجستون هيوز.

نبيذ الزنجي لا ينتهي والمرأة البنفسجية ما تزال نصف مستديرة. الأحمر يزداد تحفظاً فهو يخشى عراكاً مفاجئاً يطيح بهيبته الستينية، لكنه يمتلئ بالفضول وقد شع لونه الأحمر على الحيز الذي يشغله وانعكس منه شيء على شحمة الثور الهائج.. الثور الذي يبدو وكأنه خرج لتوه من مؤتمر « دوربان» أو غيره من المؤتمرات التي تعقد حول العنصرية وحقوق الإنسان، ولم يستطع أن يكسب ود المؤتمرين أو

يحقق لمواطنيه الزنوج أي مكسب يبعد عنهم شبح الاضطهاد والعنصرية والتهميش في دولة تصنع الاستعمار الجديد عن طريق الديموقراطيات المسلحة ومفاهيم العولمة العسكرية : لذا كان مشهده المتوتر يفضح الكثير من أعماقه الملتهبة التي انصبت على تلك الكارولينية الحسناء وهي تشيح بوجهها عنه منشدهة وخائفة، لكن رغبة ما فيها غير ملحوظة، هي ما يراهن عليها أو يفترضها هذا الزنجي المدمّر.

عيناه قريبتان، واسعتان، مخيفتان، تشكلان مع صلعته الكروية لقطة مثيرة لأسد جائع يتوثب للانقضاض على غزالة شاردة، وقد وصلت به درجة الإثارة إلى أنه سيقفز من المائدة ليغرق في اللون البنفسجي الصارخ، ويُطفئ لوعة قديمة ورثها من «روزا باركس» كحفيد شرس يسير على خطى السلف المبعثر بين الموانئ والسواحل في هجرات قسرية إلى الخلاص من اللون القاتل والبشرة المحترقة وأكواخ الصفيح الساخنة، إلى فجر كاذب وأمنية لا تتحقق: أنا حفيد روزا باركس والولد المطيع لمارتن لوثر، جئت من أدغال القرود إلى كارولينينا فورثت الحكمة من الزنوج والقمامة والقاذورات وشبق الكلاب السائبة وباصات مونتغمري وسجون برمنغهام. أنا ثمل على مدار الحياة، أسترجع الحكمة القديمة من سيدتي روزا وأبي لوثر. حياتي متصلة، سلسلة معقدة من النوازع، أريد أن أتحرر من ثقل الليلة، أريد الثأر مني ومن مواطنتي الحسناء بطريقة ما، سأبتلع أنوثتها الفظيعة وأصول على جسدها الطافح. سأجعل من نساء كارولينا الشقراوات مستنقعاً لرغباتي الجميلة، وهذه البنفسجية ملاذ السهرة القائمة وفراش الجسد العطشان، سأغني من « مارسيل شيدا »:

إنني أتغنى بك وبمفاتنك
يا آلهة الجمال الطبيعي
التي لا يدانيها أحدُ

أما أنتِ أيها التمثال
الصغير
الأبيض
يا ذات الشفاه الحمراء
كلا
حقاً إن جمالكِ صناعي
صناعي للغاية..

رجل الألوان الفاترة الذي يمكن مشاهدته لمجرد التدقيق في غلالة الألوان العبثية ؛ يشارك هو الآخر في المهرجان الغريب، ويكفي تأمله لوحده، بعيداً عن الوجه الصاعق، سيكون وقد ازداد اقتراباً من الآخرين، لاسيما من الرجل الأحمر المتحفظ كل الوقت، ينظر إلى المشهد بتلقائية. لكن ترتيب الثلاثة لم يكن تلقائياً: ثمة خطأ جوهري في السهرة المرصودة، فالرجل الشرقي يتقدم المشهد بدبيب النملة، ليعطي لظهوره أهمية غير مرئية.
تنكشف عيناه المدورتان على نحو جلي: كل عين أكبر من بيضة حمامة تبحلق بفضاضة وقد صعد فيهما نسغٌ من الدم، لتزداد وحشية وشراسة مع انضغاط الدم فيهما مختلطاً بوجع مضمر، يستقدم رؤى بعيدة لموانئ وسفن وزنوج قذرين مقتنصين في السواحل الغربية الأفريقية، وتجاراً إسبانيين وبرتغاليين لا يحفظ وجوههم الحمراء يوم كان مثل الخرقة المرمية على مركب العبيد المبحر إلى كارولينا في رحلة الألم الطويلة من غامبيا وغينيا وبوركينا فاسو والغابون، لكنه كان يراهم يوم كبرت رجولته وتفتحت عينا الثور في وجهه ودماغه: كان صبيا يرتاد الشوارع ويحلم بالمقاهي والبارات الراقصة « يمنع دخول الزنوج والكلاب»، ولا يدري لماذا يحولون بينه وبين تلك الأماكن المغلقة التي تزداد سرية وغموضاً في رأسه : كأنما الآن، وقد تبخر

العقل خلف صلعته العملاقة، يريد الانتفاض وهو يمسك بهذه اللحظة المتوترة والتي تزيد من ارتباك صلعته الملطخة، حتى يمكن مشاهدة القرط الذهبي الوحيد وقد تأثر باحتقان الوجه الأسود، فأخذ يتوتر مع الأذن الدامية..

الوقت قديم بلا شك، والكاروليني هو من نتاج ذلك الوقت البعيد، خارج التاريخ الاجتماعي الذي انتزعته غوندوليزا رايس بجدارة لتثأر من رق الماضي وعبودية السلطة، عندما تقدمت واثقة، تحفها الموسيقى وثراء اللغة الذي تكتنزه والمعرفة الواسعة التي حفظتها من أبويها، لتقف أمام القس «ثيودور هزبيرغ» كتاريخ طويل ينتصب في جامعة نوتردام وقد شخص في وجهها الزنجي كخريطة محفورة في جيناتها البعيدة، ولتفتح أملاً لمواطنيها الزنوج؛ فأفق الحياة يتسع كلما اتسعت خطواتها الواثقة.

الريشة لا تستطيع أن تقدم أكثر مما قدمته في هذه البقعة الملتهبة، غير هذه الرغوة المستحلبة في الوجه الكابوسي العنيف، لكن جمال اللحظة المتوترة باقٍ بألقه الطبيعي الذي يستغرق كل هذا الوقت ويزيد عليه، ورجل الألوان الفاترة يخرج من فتور لحظته الذي استحوذ عليه ويكتشف المرأة البنفسجية، كما لو تعافى من حروبه الطويلة وخرج من حصاره الطويل، فاختضّ الماء بين فخذيه. ربما وحده يستطيع أن يرى وجهها كاملاً من زاويته المحاصرة بالضباب، ووحده يستطيع أن يرى قفا الزنجي العريض وتوتر رقبة الثور الغليظة، لكنه آثر أن يبقى مع الرجل الأحمر المتحفظ يراقبان هجوم الثور الوشيك.

٢١/٤/٢٠٠٥ أبوظبي

البار الأمريكي

٤٠×٤٠سم هو الحجم المثالي لاستيعاب هذه الكائنات الصغيرة، كائنات الأرق والسهر والانزواء واللذة العابرة والأضواء المتعاقبة في عتمة البار. ورغم أن شجرة الميلاد في أقصى اليمين تبث أضواءها المتلامعة كحبات المطر ؛ إلا أن جو العتمة هو المقصود في تكوين عوالم الجالسين على ثلاث موائد برميلية متفرقة، ورغم المصابيح الملونة النازلة من السقف الواطئ، إلا أن الجو المحيط بالآخرين يبقي غارقاً في عتمة اشتبكت فيها الألوان الثقيلة والخافتة، فأضفت ألواناً ثانية لا يمكن للرائي غير أنْ يقرّ بها كألوان مستخرجة من جو نفسي مخمور ومتداخل، لاسيما في أقصى اليسار، حيث الرجل الوحيد الذي يعاقر خمرته وقد تساقطت عليه ظلال قاتمة، فمسحت جزءاً من ملامحه وكادت تمسح جزءاً من وجوده أيضاً، لولا جلسته القريبة من «تمثال الحرية» الذي كان مجسماً على نحو صغير، ولابد لمن ينظر إلى المشهد أن تستخرج عيناه تلك الفسحة المضاءة: حيث التمثال الشهير. ثمة مائدتان أخريان يشغلهما ستة رجال، المائدتان من البراميل الخشبية الضخمة التي يستخدمها رجال الكاوبوي في الأفلام الهوليوودية الشهيرة، ترتفع معها كراسٍ وقفت طولياً لتوازي ارتفاع البراميل.. ثمة تلفاز معلق ممسوح الشاشة وجرس متحفي قديم

لكاتدرائية من القرن الثامن عشر، وعربة يجرها حصانان، ومرايا موزعة على حائط البار ونادلة مفتوحة الصدر وصندوق جانبي أغلقته مرآة مستطيلة وقد لصق فيها العلم الأمريكي على شكل قبعة..
هناك خزائن مفتوحة بأشكال مستطيلة مغلفة بالمرايا الناعمة وقد صُفت عليها، بعناية فائقة وبتركيز شديد، قناني الويسكي والكونياك والنبيذ بأنواعها العالمية: «جاك دانيال» و« كلاند فدش » و« جون ويكر»Åو «نابليون» و « وينارس» و «كرانتز رويال» و«وبومير الخشبي» و «هيك » و « براديز هينزو» و « مارتن الأحمر» و « كورفيسا» و «كاموس» و « دبلوامتك» و « تيولامور» و«سان جيمس» و« كلامور» و«مارتيني» و«كاتي بارك» و« بوجوليه» و« وبوردو» و«كوت دوبور» و«ألزاس» و« ماتيوس» و « شيفاز ريكل» و« وايت هورس» و« فيموس كروس» وعلى الرف الأعلى صُفت قناني البيرة الشعبية الأمريكية «بدوايزر» تتقدمها مضخات صغيرة للبيرة الدرافت: الفوستر والهنكين والأمستل والبلز وستلاً وكنس وميلر وكرونا وأورنج بوم وشنتوك الصينية وإفس التركية وكرونان بورك الفرنسية وشيراز الأسترالية.
ثمة بابان صغيران أحدهما لدخول وخروج الزبائن والآخر يقود إلى المراحيض، ومسرح صغير ينتظر مجيء مغنية آخر الليل.
شجرة الميلاد هي الأبرز: بسبب كثافة حبات الضوء المتلاصقة بين أنساغها وأوراقها، ولأنها مدخل المربع الأربعيني الذي يقود إلى تلك الحياة السرية: هناك الرجل الوحيد الذي يعاقر خمرته وقد رفعه البرميل الخشبي، ليكون قريباً من تمثال الحرية الصغير، وثمة مائدة قبله شغلها أربعة رجال وقد امتلأت المائدة بقناني البيرة والمازات وثلاث علب من سجائر المارلبورو: رجلان أشقران واضحا الملامح لأن اتجاه جلستهما يقابل شجرة الميلاد، بينما توارى الآخران وقد أحنيا ظهريهما، كأنما يفسحان المجال لمصور تجاري مر ليلتقط لصديقيهما صورة سريعة. الرجلان الأشقران ينظران باتجاه ثابت للمصور العابر

وهو يهمُّ بالتقاط صورة تذكارية لهما، وغير ذلك هناك مطفأة سجائر وقد ماتت على شفتها سيجارة بانت وهي تلفظ آخر فتيلة من الدخان.
المائدة التالية تقاسمها رجلان: الأول ذو وجهٍ أحمر مسلوخ، والآخر الذي يجلس إلى جانبه، أشقر الوجه يركز عينيه المنطفئتين على رجل المائدة الوحيد الذي تُدثره العتمة وتلقي عليه غموضاً كبيراً وهو يتبادل النظر بين الحين والآخر مع التمثال الصغير.
المرايا المرصوفة على جدار البار الأمريكي لا تعكس أشياء كثيرة من الصالة، لكنها تكرر على نحو بسيط بعض الموجودات: الرجلان اللذان أحنيا ظهريهما بسبب الثمالة على المائدة الرباعية، يتضح جزءٌ خافت من وجهيهما الأشقرين، كما يتضح جزء من السقف الملون بالمصابيح المتدلية، وكذا النادلة الوحيدة القريبة من رجل المائدة الوحيد، ومصابيح مدفونة في حائط البار مختنقة بضوئها الشحيح ولوحة مستطيلة لأسعار المأكولات باللغة الإنجليزية وملصقات لماركات أمريكية متعددة وساعة حائطية تعانق عقرباها على منتصف الليل وشجرة الميلاد ولكن على نحو أصغر وبشكل مشوه: أضواؤها مائعة تسيل كالحبر المندلق، وأوراقها منكمشة ومدعوكة. كما ينعكس صندوق العلم الأمريكي كظل عابر في صدر إحدى المرايا، ومن زاوية أخرى ينعكس التمثال الشهير.
رجل المائدة الوحيد منضغط تحت عباءة العتمة التي تنفرش على مساحته الصغيرة المشغولة بجسده؛ وبدا أن ملامحه تختلف عن زبائن البار الأمريكي. كان ممتعضاً ومتشنجاً. ولن يخطئ أي راءٍ وبتدقيق سريع أن يتأكد من أنه ذو سحنة شرقية. على مائدته قنينة فارغة من الويسكي ومطفأة سجائر ممتلئة بالأعقاب المكومة على بعضها بطريقة منفعلة، اختار هذا المكان المنزوي على ما يبدو ليخفي تلك السحنة المشبوهة والمشوشة والكئيبة. لكن يمكن التثبت من عينيه المتوثبتين وهما تفترسان النادلة الوحيدة التي ينفتح صدرها عن

طيف نهد صغير متوثب. كما يمكن التثبت من أنه أقام حوارات صامتة مع التمثال الصغير القريب منه بدلالة انفعالاته المكظومة ووجهه المشتعل بالخمرة اللاذعة: لا يمكن معرفة ما يدور في ذهن الرجل الوحيد، لكن إلحاحه في أن يتقصى أثر التمثال في تفرسه المستمر طيلة ساعات الليل، يتسنى لغيره معرفة ما قد كان يفكر به هذا الرجل المنزوي وهو يطيل النظر بالتمثال الصامت عندما يسحب عينيه من نهد النادلة المتوثب: امرأة تمسك في يدها اليمنى مشعلاً كبيراً عالياً، وفي يدها اليسرى لوحة نقشت عليها قصيدة تعبر عن الحرية. أما على رأسها فقد وضع تاج وكأنه شمس ساطعة.. هذه هي الحرية في تمثال بحجم قبضة اليد. تداعت في رأسه معلومات قديمة لا يستطيع الجزم بها في ثمالته العالية، لكن لا وعيه المخدر يستقدم له ما يُعينه على أن يفهم الكثير مما جرى ويجري: عندما شيد النحات الفرنسي فريدريك أوجست بارثولدي رائعته النحتية «تمثال الحرية» في يوليو/تموز ١٨٨٤ رمزاً للحرية والديمقراطية والصداقة العالمية، أهداه إلى الشعب الأمريكي باسم الشعب الفرنسي، ووصل إلى ميناء نيويورك في يونيو ١٨٨٥ وفي ٢٨ أكتوبر ١٨٨٦ قبل الرئيس الأمريكي جروفر كليفلاند التمثال نيابة عن الشعب الأمريكي قائلاً: لن ننسى أن الحرية قد اتخذت بيتاً لها هنا...هل هذا هو التاريخ الحقيقي للتمثال الصغير الذي يجالسه من أول الليل؟ مشعل متوهج وتاج وحرية غير معروفة!

ربما كانت المسرَفات الأمريكية تهدر هذه اللحظة في رأسه وهي تجتاح صمته العاري وتسحق وحدته بضجيجها المخيف، ربما كانت طائرات الشبح تقصف رأسه الدائخ بدويّ عاصف وبأطنان من القنابل الذكية / الليزرية / العنقودية / الرذاذية / الصوتية. ربما كانت الأباتشي تحوم حول عزلته، لتلتقط أنفاسه الصعبة في صدره المشروخ وتضع مكانها حفنة من اليورانيوم المنضب. ربما هرب من سيارة مفخخة انفجرت في سوق المدينة الوحيد وحولته إلى أشلاء من اللحم، أو من

صبي عبر الصحراء وجاء ليقتل نفسه، منتظراً حورية عارية تشلع روحه إلى جنان الله الخضراء، ربما هذا وغيره يتقادم إلى أمامه بصور مكبّرة ويهاجم عزلته الوحيدة: كل شيء جائز في عزلة هذا الغريب الشرقي المنزوي وراء ظلال معتمة، كأنما تعسرت في فمه لغة المراثي التي تمرن عليها ثلاثين عاماً، وهو ينقل بصره بين صدر النادلة وتمثال الحرية الصغير. كل شيء محتمل: أن يكون ذاك الرجل الأشقر ذو العينين المنطفئتين أحد الذين قتلوه ذات مرة وخنقوا وريده على مشارف البصرة، أحد الذين سرقوا وجيب قلبه ودبيب روحه الهائمة في ليل البار الأمريكي.

٢٠٠٥/٢/١٥

الأوزبكية

فزّ الرجل الأشقر حين باغته وجه الأوزبكية فهمهم بالفرنسية: elle ressemble a Francoise وهو يتأمل الوجه الغارق في الجمال وقد ارتبكت دهشة عجيبة على وجهه وانطبعت أساريره بألوان الوجه الوضّاء الذي شعَ فيه الضوء إلى درجة انكشاف التفاصيل والعناصر المكوَنة له. وليس بمستبعد أن تكون فرانسواز عشيقته الأثيرة في خريف عمره هجرته ذات يوم دون أن تترك له رسالة وداع، لكن الحنين إليها ظل كامناً في أعماقه الخريفية، ولابد أن شيئاً ما في هذا الوجه القادم من مدينة الذهب الأبيض، من تاريخ بعيد وقد طبعته سنابك خيول الفاتحين عبر عصور تتالت صاهلة تقطر الدماء من ذؤابات سيوفها، لابد وأن تكون هذه الحسناء قد فجّرت فيه ذكراها بهذه الدهشة المباغتة.

وجهٌ جديد فجّرهُ «رحمانوف» يستقطب الاهتمام كلياً. الأوزبكية الفاتنة تتطلع إلى ما هو مجهول، فينعكس في حقل عينيها مطرٌ قديم وألقٌ قديم وشباب متماسك بقوة مجهولة لا يريد الانفلات منها؛ كأنه مرتبك في لحظة تحريرها من متاعب الحياة اليومية. تقصّد «رحمانوف» إبراز الأثر العاطفي بلطخات زيت خبيرة وتمويهه بالأسرار وألغاز الماضي وتأويل المعاني في مكوناته الأسطورية

الأولى، ليبث أسراره وجمالياته الآسرة بطلاقة وعناد كأمل متناثر لا يعرفه الآخرون على وجه الدقة، ولو أن ثمة أجيالاً شهدته وأخرى قرأته في مدونات الفاتحين على مساجد المدينة وقبابها، ويخفي ما وراءه بألوان أخذت تدرجاتها من لون عينيها الفستقيتين الناضحتين بفرادة التأمل العميق.

عتمة التظليل ترسخت في المساحة الصغيرة الموزعة من جهتيها، تلك التي تفصلها عن الخيول والرماح وأمواج نهر جيحون. رائحة عشب مبلل انتشرت على مساحتها وطلعت من عينيها وامتدت إلى روح الرجل الفرنسي الذي ألقته المصادفة في هذا الشبه العجيب، فانعقد لسانه ولم ينطق بحرف آخر، سوى أن عينيه ظلتا تتنقلان بحب على الوجه الجدير بالحب حقاً.

الرجل الفرنسي يتمعن في الاكتظاظ الفستقي المورق في العينين الأوزبكيتين، متجاهلاً كل نتوءات المشهد وبروزات الزيت والشطحات الملونة المتنقلة بين مقابض السيوف وجدران المساجد والنهر الأحمر والخيول المدرعة وهي تكابد الموج العاتي ورياح الشتاء اللاذعة.

ثمة رجل نحيف زاحمه وهو يعتمر عمامة سيخية حمراء تتناظر مع لحيته النازلة : مرق ظلها خفيفاً على سطح اللوحة. هو الآخر أوقفه صاعق النار في وجه الأوزبكية، فشبك يديه وأحنى رأسه إلى إلهة الخصب والنكاح: لم ينتبه، كالفرنسي، إلى تشكيل المزاج القديم لـ« رحمانوف» المتداخل بغموض وقوة في أيقونات متراصفة لكنها متفاوتة الحجوم ونمنمات شذرية تظهر وتختفي، حُرص على أن تكون تسجيلاً لتواريخ متعاقبة.

السيخي الذي علاه حوض قماشي أحمر أشرق وجهه لمرأى الحسناء وأورقت ابتسامة في داخله ظل طيفها ملتصقاً على وجهه وقتاً غير قصير، فيما حلَّ فجأة رجل خمسيني أسمر منجذباً بمغناطيس الجمال ومد رأسه من خلف كتف الفرنسي وقد فلتت منه آهة محبوسة اختصر

فيها لوعة طويلة تماثلت، ربما، مع دهشة الفرنسي حين باغته الوجه الجميل.
الرجل الخمسيني حلَ على نحو مباغت لاهثاَ كأنما خرج لتوَه من غرفة ضيقة كثيرة الأنفاس والرائحة المتكررة. اهتمّ لفوره بترقيق مشاعره التي كانت قبل قليل متناثرة وطائشة. كان يتجول هنا وهناك دون أن يكون لديه أدنى حظ في توفير سلام روحه القلقة، لكنه ثبت لفوره أمام الإله الجميل مفتوح القلب والعينين والمشاعر، متحرراً من ثقل جسده. قال شيئاً لنفسه وسكت وعيناه تتصارعان لالتقاط شفرات الوجه ومحيطه الغائص بنتوءات وبروزات الزيت الكثيف. تشكلت فيه صورٍ سريعة تزاحمت وارتبكت شفراتها في رأسه، غيرِ أنه آثر أن يكون موازياَ لمحنة الوجه الأوزبكي وحزنه العميق الذي لم تخفه ريشة «رحمانوف» عامدة عن أنظار المعجبين ومريدي الجمال بمتواليات الوجوه المدينية التي يكررها في مشاركاته الفنية الدورية، لا سيما في صالات الشرق الأوسط.
لم تكفه عيناه الصغيرتان لإحاطة المشهد المتسع في وعيه، كمن عرف قبل غيره شيئاً من أسرار المكان وتواريخه المتعاقبة وتشكلات الأوزبكية النفسية والروحية وخلفيات وجودها المريش بالنتوءات والإيقونات والنمنمات الشذرية وفواصل المسافات المعتمة: المعتمة جدا: وصيحات التاريخ الحاضر الغائب ورؤى الأجيال المتحررة والمستعبدة تحت مسميات براقة كثيرة غابت وأفلت وتوارت خلف نقاب التاريخ.
قال أشياء ما لنفسه قريبة للهمهمة المبهمة منصتاَ باهتمام للأصوات الذائبة فيه: مُجيلاً نظره بين عناصر الأوزبكية وأصابعه الراعشة تترصد مكوناتها اللونية الغامقة، الغامقة جداً، ومفتاح سري يقبضه بقلق أولاً ثم بيقين ويدور بين حدبات الكتل العميقة ويكشط في دورانه ألواناً مغطاة وحروفاً عربية متناثرة تنكشف وتنمحي على هياكل

مساجد وبقايا عمائم وسيوف مثلومة ضيّعتها ريشة «رحمانوف» بعبقرية عُرف عنها وهو يفتح أصداف التاريخ المغلقة بأناة ومهارة فائقة في كل مشتغلاته التي طافت صالات الشرق الأوسط ومتاحفه، كما فتح ذات يوم سجن جسليق وروى ما روى من عذابات الجسد البشري وهو ينوء تحت مشارط الجرّاحين الحكوميين من حملة الأوسمة الشيوعية القديمة التي أثقلت صدورهم ولم تثقل ضمائرهم في عصر البروسترويكا والاستقلال القيصري الذي قذفته عولمة القرن العشرين.

همْهم: مسكينة ! غير أنه ابتلع الكلمة القاسية ولم ينتبه لزحام الوافدين الذين اختلطت روائحهم وتقاطعت أبصارهم على بورتريه الأوزبكية.. قال إنه.. إنه ماذا؟ هي؟ لم يفكر هكذا على وجه الدقة. استفزته؛ ربما تحت الألوان المتراكبة أو خلف القماشة السميكة؛ أفواج الخيول الصاهلة وهي تعبر نهر جيحون.. التواء السيوف المتصادمة في نهارات المدن المستيقظة على غزو الخيول.. عمامات الموت التي تلف الرؤوس..الرايات السوداء والخضراء والحمراء ترفرف على هياكل المدن المستباحة.. منجنيقات بدائية وكرات نار مقذوفة بلهب أسود كثيف.. مدافع ستالين ورشاشات الرفاق الحمر لها لغة جديدة من النار والحديد المتشظي..كان مفتاحه الصغير يدور بين الكتل والألوان؛ بين التواريخ الصوتية والحروفية والميدانية التي نقلها «رحمانوف» بدقة الصائغ المحترف، صليل السيوف الراشدية والأموية والعباسية والسامانية والسلجوقية والمغولية والشيوعية الستالينية والبروسترويكية والكريموفية وكل بلاد الصفد، وكل التواريخ المخزونة في ضربات الفرشاة السريعة التي تركت فوضى من خراب غير منظور تماماً خلف ظهر الأوزبكية، خيول سعيد بن عثمان ورايات جنده تغالب النهر وتمرق خلل الزيت الناتئ كأشباح مخيفة، تتبعها خيول قتيبة بن مسلم الباهلي لتُسقط الأمصار والمدن وتترك أحصنة قتيلة وجنوداً حفاة أيبسهم البرد والمصير الطويل الذي قصدوه بحماسة لا نظير لها، فيما

تكسرت رماحٌ ونبالٌ في صدور المدافعين على سفوح الجبال وهبطت عليها غيومٌ سود آثر «رحمانوف» أن يُكسيها بلطخات حمراء وصفراء شقت ليالي المعارك وطوتْ مجد الغابرين؛ ورجل الخمسينات الأسمر الغاطس في مغناطيس الجذب العميق يلتقط شفرات «رحمانوف» فتمر في مختبره المخفي تواريخ ومسميات ووقائع تختصر عليه غربة الفتاة؛ لم تكن غريبة عليه كثيراً إلا بأنها غريبة على وجوده الطارئ ومفاجئة للوعته الطويلة التي أثارها الحضور الأوزبكي المعقد القادم من ريشة «رحمانوف» وكأنه رأى ما يرى أو قرأ ما يقرؤه الآن في عصور التورية والمجاز والتسبيب والتبريرات العقائدية المميتة.

الثلاثة انعقدوا في تأمل صامت: الخريف الفرنسي العائد بريشة رحمانوف / السيخي الساجد لآلهة الخصب والجنس / الخمسيني الحائر المهمْهم لنفسه / والأوزبكية تواصل بث سحرها وجاذبيتها المتقنة: لوحة ملائكية قدمت من صراعات دموية وشيوعية سابقة وتلقفها حامل الأوسمة والشارات الحمراء كريموف هذا الذي يوصف بأنه مقاتل من أجل الحرية على طراز فاليسا وهافل.

انتهت لحظة الإبهار الجامحة. الفرنسي يخلي المساحة التي شغلها جسده ويلقي آخر النظرات على فرانسواز المهاجرة كما لو يودعها إلى الأبد. تبعه السيخي وهو ينوء بعمامته الثقيلة ولحيته المتسافلة، فيما بدت فتاة الجمال؛ وقد تحررت من العيون؛ أكثر وضوحاً وسعة: عينان مفتوحتان على برقٍ أخضر ورموش طويلة تشكل في العينين زهرتين غريبتين في وجه مدور فصيح الجمال كوَّنته فجيعة ورسمه حزن وكرّسته ريشة ورثت أبجدية الحياة والموت على مر التاريخ، فالتركيز على ظلال الرموش كان غامقاً حتى إنه سيبدو داكناً إلى حد واضح، فبدا كأنه سيمتص إشعاع الوجه الجميل في أية لحظة قادمة. عنقُ

مرمري يكشف بشرة بيضاء كالحليب وهو يتدفق إلى مفرق النهدين في مجرى عذب تسيل فيه خمرة ماجنة حتى التل الأيسر الذي ينهض القميص الأسود الفاحم بقوة ويمتد ببضاضة أنيقة قلما تحتفظ النساء بهذه البضاضة المغرية، ومع هذا المجرى تتهاوى سلسلة ذهبية متراقصة كأنها شرارة نارية متصلة طوقت العنق المرمري والتحمت في المجرى الماجن وهبطت إلى شق مظلم حيث يبتدئ القميص الأسود المنتشر على بقية جسدها.

الرجل الأسمر المنجذب بمغناطيس الجمال أو الخراب منذ أول لحظة لما يزل واقفاً كتمثال، يتمتم كما لو يحادثها. التفت إلى لا أحد، لكنه استدرك عندما رآني مصادفة أنظر إليه:

« أظنها من أوزبكستان؟»

كان وجهه أسمر ولحيته الخفيفة مبعثرة:

« الأوزبكية..هذا هو اسم اللوحة في البروشور » قلت له وأنا أتفرس بوجهه.

« من أوزبكستان » أكملتَ لأجعله ينظر إلي: كان حزن عينيه باديا وعدم الارتياح علامة يمكن التقاطها على الفور.

أدار وجهه إلى الفتاة ثم التفت ثانية كأنه قرر شيئاً:

« إنها جميلة.. ولكنها..حزينة جدا » قالها بحماسة بغية موافقته:

« أنت فنان ! » كان السؤال مفاجئاً ولا شك أنه لم يتوقع أن أسأله. ارتبك وبدا الخجل عليه:

«لا..لا».

انطبق عليه صمت جديد وهو يواصل التحديق في وجه الأوزبكية. ارتبكت أنا الآخر. «وجهه ليس غريباً عني». كأني رأيته في مكانٍ ما قبل وقت ليس بعيدا في مرقص أو حانةٍ أو مقهى. هرشتُ ذاكرتي: نفس السحنة ونفس الألم ونفس الانشداه لعوالم تبدو غريبة عليه. إنه يحضر بقوة في ذاكرتي، أسمر داكن بشوارب غير نظامية افترعها الشيب ورأس

غير حليق تدلت منه صلعة أمامية صغيرة قابلة للتمدد قريباً. يرتدي قميصاً قهوانياً هو الآخر أكثر دكنة، بدا وكأنه زرّرهُ على عجل. لا يبدو منسجماً مع نفسه كثيراً، يتطلع إلى كل شيء. إنه غريب ولا شك. هذا هو الانطباع الذي يجب أن أقرره.

شدني حضوره الصامت. كان متمترساً في ترس صامت لا أشك لحظة أنه صمتٌ مغشوش. ابتعدت عنه بخطوات قصيرة منسحباً إلى لوحاتٍ ومشاهد ورؤى جمالية رأيتها قبل قليل، منقاداً وراء هاجس خفي من أنني رأيته فعلاً وفي هذا المعرض على وجه الحصر. هاجسي قادني إلى لوحة إثر لوحة. أمعنت النظر إلى الكثير من تفاصيلها. ثمة من يشبهه. الآن شدّتني المفاجأة. رأيته أكثر وضوحاً. نفس الموديل بأوضاعه المتعبة والكئيبة.هرعت إليه لكنني لم أجده. اختفى في زحام المعرض.ترك فتاته لعيون فضولية أخرى كنت على يقين من أنه هو يتكرر هنا وهناك.عجبت لهذه المصادفات! تسمرت أمام الجمال الأوزبكي مرة أخرى، فلدي اعتقاد من أنه لن يفارق هذه اللوحة، فالوجه أحكم جماله عليه وأعاده إلى أشياء شخصية بالتأكيد كما الفرنسي المنشده.

فقدت التركيز على الوجه الوضّاء وتركتهُ إلى عيون أخرى أخذت تلتهم وجه الفتاة المتضامن مع جزيئاته الدقيقة. كان الزحام بليغاً. نساء ورجال أعمال ومثقفون ودبلوماسيون وإعلاميون وصحفيون وأدباء ووجوه سوداء وحمراء وبيضاء لأجساد آسيوية قصيرة متماثلة في قصرها وأفريقية فارعة مشعة بلون العنبر فيها وغربية رشيقة، مصقولة بعناية، وعربية مختلطة من عواصم ساحلية أو صحراوية، فهذا المعرض الذي يقام في بلد الوافدين فرصة للجاليات أن تشم شيئاً من روائح بلدانها، لعلها تحتال على غربتها الفظّة وتتماهى مع الوقت في هذا العرض الكبير الذي يستقدم أماكن أثيرة وتواريخ منسية وحروباً مريرة وذكريات بعيدة وأحلاماً مضت وأمطاراً جفت وسعادات

أفلت وغزوات لا عدّ لها ولا عدد.
حطت على كتفي يدٌ حارة. كانت يد الرجل الخمسيني الأسمر. كانت عيناه تزوغان وأسنانه غير منظمة يعلوها ما يشبه الغبار المزمن كأنه هنا ولم يغادر المكان.
بارتباك سألني: هل فهمت الفتاة ؟
وبارتباك أكمل: أقصدب. هل عرفتها؟
غمرني ما يشبه العطف عليه. استرخى وجهي أمامه بابتسامة غير متكلفة لبث أكبر قدر من طمأنينة حقيقية بيننا كنتُ أحتاجها أنا أكثر منه. خطا أكثر من خطوة باتجاه اللوحة وحاول تلمس بعض النتوءات الزيتية، لكن أصابعه انحسرت فعاد وهو يتمتم: شيء مذهل!!
كانت ابتسامتي ماثلة بثقة.
– هل رأيت كل شيء؟ تساءل مستعيداً قامته المنحنية تقريباً بعد أن رفع كفه الحارة عن كتفي.
– رحمانوف كان عبقرياً في هذا البورتريه.. حسي وجمالي وهو يستقدم التاريخ والكون كله من أجل فتاته هذه.. الأوزبكية.. شيءٌ خارق !
غمرني عطف أبوي وأعترف أنني بدأتُ أميل إلى هذا الشاب القلق الذي يختفي ويظهر دون سبب. وحينما أعاد لي نفس المفهوم بطريقة ثانية شعرتُ أنه أربكني قليلا:
– جمالية الأوزبكية تنبع من كونها شغلت جزءاً مهماً من مساحة اللوحة وغطت على عناصرها الأخرى وهذا ما يريده رحمانوف: أن تغطي على بقية العناصر الجزئية لا للإبهار فقط، إنما أظنه كان يريد التعتيم على فجيعتها الشاملة لإشراكنا معه في البحث عن نقطة الصفر، أي نقطة الخراب الأولى لذلك ترى تواريخ الخيول والرايات والمدافع وضعت في تراتبية متعاقبة وهي تعبر النهر.
عادت عيناه لتخترقا حجاب الوجه الأوزبكي شيئاً من الثواني وعادتا

لي:
– الوجه مشرق بألوان عظيمة لا سيما الفستقي الربيعي الباهر..دع الجمال..هل رأيت الأثر ؟ أعني الخراب!
شدني من جديد وهو يبدو أكثر قدرة على الوقوف أمامي بعينيه الثابتتين:
– هل رأيت عذاب الفتاة.. الأوزبكية.. وجهها ليس مدوراً تماماً.. تأملْه.. فيه دمٌ شرقي!
ضحكتُ بمرح مربتاً على كتفه، فكثيراً ما أنصت إلى تأويلات وقراءات غرائبية تمنحني المتعة. لم يضحك ولم يبتسم. ظل وجهه محتفظاً بجدية صارمة ليست مفتعلة على أية حال.
– الوجه ليس جميلاً.. إنه كئيب.. وهذا سبب جماله..الفتاة هاربة من سبي طويل الأمد..
– وإلى أين تتجه ؟ لم أملك إلا أن أسألهُ.
قرر دون تحفظ:
– إلى عصر أكثر قذارة وانحطاطاً..دعنا من هذا الآن..
أخذت أصابعه شكل الإشارات المتتالية على تفاصيل لا أراها في الفتاة.
– لاحظ الخيول وهي تترك وراءها الزخارف.. «شوف» المنابر والعمائم الوسخة..الحماسة الطاغية على الوجوه والعضلات.. الدمار والغزو..
تتالت أصابعه مؤشرة على نقاط مبهمة:
– «شوف» ستالين والقياصرة الروس وأصنام الشيوعية وأنهار اللحى وانخساف المساجد وصولجان الأمس.. تأملْ هناك: ذاك عصر أحمر.. دم اللوحة يفسره فستق العينين المحاطتين بالأحداث الصعبة.. الفستق الأخضر دمٌ أخضر.. رمزية عالية من رحمانوف.. لاحظ كيف ينتشر اللون من العينين وينسحب إلى ما وراء اللوحة..لاحظ السبي على مر التاريخ .. «شوف» لطخات الزيت المتناوبة ..

كان يتحدث بحماسة يشوبها الارتباك إلى حد ما . لم يكن واثقاً مني تماماً، لكنه قرر على ما يبدو أن يجرّب ذاكرته حتى لو لم أصغ إليه بشكل كامل: حينما أنشغلُ بتخاطف الرؤوس والعيون من حولنا. بدا لي صعباً وظريفاً وعارفاً كأنه شاهد على تاريخ وأحداث مضت وأخرى ستمر في هذا المكان أو ذاك من العالم. لم تفتر حماستي بتتبعه وأنا أرى وجهه يتقلب بيني وبين فتاة الأرال كما سمّاها مرة.

جال منقباً في حفريات غابرة مستقدماً قروناً منسية في جوف الزمن البعيد، متتبعاً صولة الأحنف بن قيس وأراني لون الغبرة التي تركتها خيوله الصائلة في طخارستان وتوقف عند والي خراسان سعيد بن عثمان وهو يجتاز نهر جيحون جنوب البلاد كأول فاتح عبر النهر بخيوله المتينة وجنده المدرعين إلى بيكند وفرغانة وبخارى وكل بلاد الشاش فترك راياته السود على مفارق المدن وسفوح الجبال كما ترك رقاب المدافعين مرمية على جسور القصبات وجذوع الأشجار: فيما انعقدت أصابعه على مساحة أخرى رأيتها لأول مرة بارزة في جسد اللوحة كما لو وضع كشافاً ضوئياً عليها، كانت تلك آثار السلف الأموي قتيبة بن مسلم الباهلي الذي بسط نفوذه على بلاد الصفد وأشار إلى مسجده الشاخص في بخارى حتى العهد الكريموفي الصعب.

لم يتعب من الروايات. انتبه إلى انبهاري لهذه المعطيات التي لم ألق نظرة كافية عليها. سألته إن كان ذا أصل أوزبكي أو عاش هناك سنوات أو درس التاريخ الروسي أم أنه يعرف «رحمانوف» معرفة يقينية باستلهامه تاريخ بلاده الطويل. لم يجبني . بل لم يعر اهتماما لظنوني. كان يديم النظر إلى مواقع مختلفة تشكلت في عتمة الألوان خلف وجه الفتاة الجميلة وأصابعه تحدد مواقع ووقائع غير منظورة تماماً، متواصلاً مع جيوش جنكيز خان التي كوّنها اللون الغباري الحائل من لون أخضر ومن الحرائق المدوية التي أحدثتها جيوش الغزو التتري، قال هذه نيسابور وهذه خوارزم وتلك طشقند والمحرقة الكبيرة هنا في

سمرقند عاصمة التاريخ الأوزبكي العظيمة التي أعاد بناءها تيمورلنك إلى حاضرتها وتاريخها الحقيقي ومجدها وزخْرفها بعقلية الباني: لكن، انظر إلى أقصى اليسار، ماذا فعل القياصرة الروس وماذا فعلت الشيوعية الستالينية، وعندما أسقطوا سمرقند ثانية كان سقوطها مدوياً وفاجعاً في العالم كسقوط بغداد عام ١٢٥٨ على يد هولاكو.

فهمتُ الحكمة والربط المتوازي لتاريخين يتشابهان في الدم. فهمتُ اللغة التي يتحدث بها الرجل وقراءته للوجه وخلفياته العميقة. كانت أصابعه ترتعش بين المجريات الخلفية لتاريخية اللوحة وبنائها الأسطوري المتقادم مع أنهار الدم والحرائق التي انكشفت لي على وجه اليقين وبالتركيز العميق. كان يتحدث عن رؤى مغذية لتراجيديا المدينة المستمرة التي تنتقل من عصر إلى آخر من لون إلى لون.

تعرّق وجهه الأسمر والتمعت عيناه بالكثير من الغموض. وخفَّ تطاول الرؤوس من حولنا مع اقتراب المساء وتقادم الوقت . كنتُ على يقين من أن هذا الرجل الغريب بذل جهداً لإقناعي أو إقناع نفسه بأن التاريخ يتكرر هنا وهناك وأن مجاري الدم ستستمر في خريطة البشرية.

تطلع إلى اللوحة من جديد وتغلغل في كتل الزيت النافرة أسفل الوجه وعاد لي:

– أتدري! رحمانوف العبقري اختصر الأمة الأوزبكية هنا .. وأفظع ما فعله هو تحطيم قدسية اللون .. انظر كيف سحب اللون من عيني الفتاة ونثره هنا وهناك في خلفية اللوحة ومع مواقع المعارك والأحداث المخيفة .. رحمانوف ذكي .. يريد أن يوازن الرعب الأوزبكي لعقد صلة بين القديم والجديد .. فكرته ليست جديدة، لكن الجديد في براعته استخدام اللون الفستقي، لون الربيع الأوزبكي الذي اغتالته الحروب والجيوش ومطارق العنف الإيديولوجي..استخدمه هنا رديفاً موضوعياً للون الأسود..

تأملتُ الوجه الخمسيني الجاد مصغياً إلى نبض المعرفة فيه، لأستغرق

أنا الآخر في تفاصيل جانبية كانت غير منظورة بالنسبة لي فأرى ما يمكن أن أراه من تمويه فني عجيب خدعنا به رحمانوف الشهير عندما فرد المساحة الكبيرة للوجه الفاتن وترك جزئيات التاريخ تتصارع بين الألوان وتراكيب الزيت وتأويل الإشارات الكثيرة التي غرقت كلها في ألوان غبارية داكنة يشف منها لون الفستق المدفون.

تحركت أصابعه قريباً من وجه الفتاة المستسلمة ثم إلى محيطه المكتظ بالرموز والشفرات والأيقونات المختلفة:

– نفس اللون يحيط بالتواريخ كلها وينحدر حتى يصل إلى المرحلة الكريموفية العصيبة، وهذه الضربات السريعة للفرشاة ؛ لنقل العصبية؛ تعبّر عن استلاب روحي وجسدي عام لولادة طوق أو أطواق صحراوية مخيفة طمرت فيها مخاض البروسترويكا الغورباتشوفية وأحيت نظام العولمة الجديد، ولكن من وجهة نظر متخلفة، قاصرة، عنجهية، صارمة وصادمة للمجتمع لم يألفها الأوزبكيون في عصر يُفترض فيه الانفتاح وطي التواريخ القديمة .. أظن هذا سجن جسليق أو محكمة شيلانزار التي يخشاها الناس، شأنها شأن محكمة ميروز أولغ بيك ..

كان يتحدث بفطنة واعتداد. خرج من الشك إلى اليقين فيما كانت أنظاري تتحول إلى الوجه الأوزبكي الماثل باستسلام كئيب: ثمة خدش في الوجه، بين مساحة العينين تماماً. نتوءات الزيت كانت أكثر بروزاً: شارات حمراء وسوداء ومساجد متآكلة ومدافع ستالينية تنفخ سحباً من دخان في كل مكان، تجاهد أن تخرج من حصار الزيت وتشق اللوحة بهدير راعد.

تغير وجهه الأسمر إلى لون آخر أخذه من فورة اللوحة، لا أعرف بالضبط كيف أصفه. استقرت عيناه على عيني برهة ثم تحولتا إلى الوثن الأوزبكي الذي امتصَّ وقتنا. كان وجهاً بلا ملامح. جمال عابر يتخاذل في قعقعة التاريخ وينضح بالحزن الطويل.

عات لي عيناه كفراشتين متعبتين:
– هل سألتني شيئاً؟
– لا .. وانتظرتُ أن أستدرجه لما بقي عنده من أثر معرفي بعدما استنطق كل لطخة زيت وعبر أقانيم الألوان بشكل لاهث وجال في عطفات التاريخ المعقد بروح حسبتها إيجابية أولاً وأخيراً، لكنني استشففتُ منه لوعة الغريب في البلاد الغريبة.
سألني على نحو مباشر:
– أما عرفت هذه الأوزبكية ؟؟
– لا.. ولكنك ربما تقصد هي رمز لتاريخ البلاد .
– هل رأيتها من قبل! أعني هل رأيت ولو شبيهة لها !!
– لا .. أجبتُ بيقين قاطع..
خفتت أضواء القاعة بالتدريج وكان شاب هندي يضع ربطة متهدلة على عنقه مكلفاً بإطفاء أنوار القاعة الكبيرة. لاشك أننا قضينا وقتا طويلاً نواجه اللوحة النابضة بالحركة والتاريخ والأسطورة المتداخلة. كانت أسئلته غريبة في آخر وقت من العرض، وكانت لعبة الأسئلة بالنسبة لي هروباً من مواجهته، لذا قلبتُ أسئلته إلى أسئلة لي متجاوزا ما يتخاطر في رأسه .
– وأنت هل تعرفها!
استدار لي:
– أعرفها....
ثم أضاف:
– وبالتفصيل الممل ..
سيغيب وجه الأوزبكية بعد قليل في عتمة القاعة والرجل الهندي يحترم وجودنا المتأخر.
استطرد:
– هذه الفتاة التي لا أشك لحظة أنها حزينة وكئيبة هي خلاصة رثة

لحاضر أسود ولا أقول لتاريخ بعيد ..أتفهمني؟
– أفهمك...
– حاضر سجين ومخيف وقمعي وجائع وكارثي.. رحمانوف يعرف كيف يستحضر وجوه بلده وكريموف يعرف كيف يسبيهم!
عدتُ إلى السؤال:
– هل تراها .. هل ترى هذه الفتاة .. أوه .. هل تعرفها ؟!
بدا لي أني أسأل بسذاجة لكن الرجل ردَّ ببرود وأسى:
– أراها كل ليلة .. وأتحدث معها كل يوم .. ومنها عرفتُ ما لا تعرفه أيها السيد الصبور.. هل تريد أن تراها !!
– أين...!
باغتني وجهه الصارم وأكّد لي:
– هنا في هذا البلد.. يمكن أن أقول لك في هذا المكان تحديداً ! ستراها كما هي في اللوحة إلى حد الانطباق ..
فاجأني:
– كيف ..؟
تداعت صور المكان الذي يستضيف هذا المعرض العالمي: ما وراء المعرض حديقة فسيحة أنبتوا فيها أشجاراً هندية واستوائية ضخمة كفّت عن النمو منذ سنوات، مطاعم يرتادها غربيون شقر. نساء وشباب يتميزون بقصّات شعورهم الغريبة ونساء ضايقتهنَّ ما تبقى من أشباح ملابس خفيفة. مطاعم بحرية لسكان محليين مميزين بأزيائهم الثابتة. ثمة بارات متوزعة على البحر تديرها فلبينيات وصينيات وتركيات بارعات في العري. ثمة مسبح كنتُ أرتاده قبل عام يتصل بساحل البحر. ملعب صغير للتنس محاط بأشجار يختفي وراءها بعض الهنود والباكستانيون يبصبصون على سيقان الغربيات العضلة ومؤخراتهنَّ المترجرجة. ديسكو ليلي على طرف غابة صناعية محتشد بالنساء العاريات و«عاهرات» العالم القادمات من القارات، لم أدخله

منذ الشهر الماضي . صالة فندق وملحقات كثيرة هنا وهناك لخدمات مختلفة. أين يمكن أن أراها؟!

عدتُ أديم التركيز فيها من جديد قبل أن تحل العتمة الأخيرة، الوجه الذي فقد بريقه الجمالي المباشر. كان من السهل تماماً أن أرى انحسار جاذبيته. حطت كآبة على كل البقعة التي تشغلها. ثمة ثلمات صغيرة هنا وهناك، في مفرق الصدر، على امتداد السلسلة النازلة تحت القميص الأسود . كان اللون الفستقي يضمحل هو الآخر ويسودّ. انطفأت أنوار القاعة، بينما توارى الرجل الخمسيني الأسمر فجأة ولم أجد له أثراً..

وجه الحبشية

الحبشية تنعتق كلياً من خثرة العتمة، كأنما عدسة ديجيتل شديدة الحساسية أعتقتها من ركام كان يريد أن يحتويها وإلى الأبد. ألقٌ فسفوري في وجهٍ زنجي محنط اختلط فيه برتقال الأنوثة الأولى وسطوع القهوة الأثيوبية في بشرة صافية. لا يمكن إخفاء كمية الطفولة المغدورة في عينيها الصفراوين وكمية الألم غير الظاهر والذي أخفته بعناية أمام مصور يجيد إغناء الوجوه الحائرة بلمسات ذكية من تشتيت مكامن القهر وإغناء العناصر المكوّنة لمشهد الأنثى السمراء.

خلفها طيفٌ من الأشباح يكوّنون حلقة دخان أبيض وأصفر تحجب من كان في البار أو المقهى أو بيت المتعة لرجل ربما فاضت جيوبه بأموال مقترضة من بنوك محلية ليحيي لياليه الحمراء ويخص نفسه بذكريات غير متكافئة مع نساء مجهولات عبرن مدن البن والقات وأقاليم سوداء حزّ أرحامها الإيدز وسرطان الفقر، هاربات من جفافٍ وتصحرٍ وعطشٍ من « عفار » و « تيكاري» و « بادمي » و « ديرادوا»، ليجدن أنفسهنّ، على نحو مخيف، في أطواق الليالي الخمرية الماجنة. ربما كان ذلك فعلاً. ربما كان هذا باراً لنساء يعبرن الليل بأقل الأجور، أو هو مقهى تداخلت فيه نفحات الأراجيل واصطدمت فيه الرؤوس على رؤى مؤقتة، فانبثق هذا الوجه الطفولي من كل الركام ليدخل في برتقال الضوء،

منهزماً من حصار فاجر ورائحة منوية تسيل بلا انقطاع من صنابير الغرباء، وربما كان غير ذلك أيضا: فالأشباح على قلتهم اقتسموا الفضاء تحت غيمة فضفاضة من الدخان الأبيض والأصفر وأنشؤوا مشهداً لا يمكن التأكد منه على وجه التحديد في هذه اللحظة.

يتململ رجل أسمر في موضع حُشِر فيه حشراً، ولولا نثار الضوء المتهالك عليه؛ وهو من بقايا حزم لونية برتقالية ساطعة أنضجت وجه الشابة وكشفت أغلب عناصره؛ لولا ذلك لما كان بالإمكان اصطياد الرجل الأسمر الناظر إلى كل شيء في مشهد الوجه الحبشي.

طفلة القهوة الحبشية من نوع « يرغاتشيفي » تستدعي الآخرين إليها: عيناها تضيقان وتتسعان حسب درجة الضوء البرتقالي المتبدل عليهما مرتين: الضوء الذي أسبغته عدسة مقتدرة لتزيل قدراً مهماً من زنوجتها وتضفي عليها مسحة من جمالٍ جديد، والضوء المتألق من قاعة المكان الغامض الذي يتساقط على مكونات الوجه بنسب عادلة، فيضفي، للوهلة الأولى، سطوعاً مغشوشاً لم يكن في وجه الحبشية المبتسمة بقهرٍ ولوعة.

بين عينيها الصفراوين « أفنجا » صغير مصقول شكّت في أحد منخريه حلقة حمراء مندغمة مع حفلة الضوء البرتقالي ومتضامنة مع شبح الألوان خلفها، فبدت مثل شرارة مقوسة التهب بها المكان، فيما استدقت أقراط ثلاثة ناعمة على صفيحة أذنها الداخلية كنجيمات متشكلة من لون القهوة المرّة، فيما علت غمازتيها موجةٌ خفيفة من لونٍ لم يحمرَ بعد .. ولم ينضج بعد.

لا يمكن تخمين المدينة التي هربت منها طفلة البُن، فالوجوه الأثيوبية متشابهة تتقاسمها ذات الملامح الصفراء التي تنم عن أنيميا مستعصية وكأن الثمانمائة مليون إنسان تقاسموا الفجيعة منذ عهد النجاشي وإلى عهد زيناوي، ستة وعشرون ألفاً وثمانمائة وثمان وستون مدينة تغطي مساحة الفقر الأسود والتصحر الأجرد في

«ديرادوا» و«قندار» و « جيمـا» و «توشي» و«أورميا» و«هرار» و« كافا» و « تاكازا» عدا الحروب الطائشة التي انسحق فيها الجنود الأثيوبيون وأكلتهم الذئاب الإرتيرية الجائعة حتى أصيبت بالإسهال، وكأنما تلك الواقعة الرهيبة التي أرخها برثاء حزين « لعبي عبدالله» بلغته التَجريَة « كمكمد اندي ركبيا / تاكاس حزيت اكريت » كأنما هي وغيرها من الوقائع المهولة، سرطان آخر يضاف إلى سرطانات الجوع والخوف وشحة الحياة: «تلك البلاد التي يموت الناس فيها عطشاً» حين ذكرها هوميروس في أناشيده الخالدة، أمِن كل ذاك الركام خرجتِ يا بنيتي الأمهرية ! يا طفلة الضياع الأول ! طفلة الحانات المبكرة التي استفاقت على جوع جسدٍ، أم معدة خاوية، أم أغنية رددها « أفريم» بحلاوة لسانه الأثيرة! لعلك تتذكرين وأنت في هذا الغسق المخلوط بنشارة الضوء «عايدة» التي انبثقت من أديس بابا لتعشق «رداميس» في قصة حب عنيفة هزت الحناجر والألسن وتبارى عشاقٌ ومغنون لترجمة نار القلبين العاشقين في أغانٍ صداحة ملأت البلاد من أقصاها إلى أقصاها: وهذا « تلهون» الذي تعشقين صوته وأولئك الذين صنعوا ذاكرتك الصبية: «ديمو جمري» و«أستير» و«همل» و«نواي» و«سهاي» ولكنهم تخلوا عنك في لحظة التاريخ السريعة وبعد اجتياح الجراد لشعرك المتقاطر بضفائره الرفيعة المجدولة بعناية إلهية حميمة. وكأني أراهم الآن خلفك يتناوبون في غناء صامت ملؤه الحزن والبكاء، ولكن دعيني اللحظة أرى كل شيء. أرى الشيطان الأثيوبي المتربص لسُمَانته الطرية في بلد «النجاشي» بلد البن والزهور والعطور.. والجفاف.

لا يمكن الإقرار بأن الأشباح خلف الحبشية السمراء يغيّرون مواقعهم أو يتناوبون في استدراج ضوء مغلق على حانتهم أو مقهاهم أو بيت متعتهم، لكن العدسة حاصرتهم حتماً واستأثرت بوجه الشابة الحبشية، فانتزعتها من المكان بفرادة، وتركت مزيداً من العتمة والغموض من

الجوانب كلها: إلا من ذلك الرائي الأسمر الذي اقتنصته العدسة الحساسة في اللحظة الأخيرة كفائض لا يعني وجوده شيئاً تقريباً إلا لكونه قد ظهر الآن ولا مناص من الإقرار بحضوره الحتمي الطارئ.

تركت شفتيها السمراوين عابرتين في اللقطة، فظهرت ابتسامة منهكة، كأنما أتمت قبل قليل مع نفسها أغنية الكابلي « يا أخت بلادي..» وقد غنتها بلا سعادة مفترضة، بلا موسيقى كونية ولا كلمات تستطعمها. بدت روحها خاوية وأعماقها سوداء خرجت من «المركب السكران» ومن كلمات الشاعر البوهيمي المجنون المتوحش، الراكض إلى الضياع، رامبو، الذي لا يكبرها إلا بعدة ساعات حين وصل الحبشة ولم يجدها فاقتفى خيط البراءة في «هرار» عله يراها .. نفس الجرح ونفس العذاب: «.. العالم كبير ومليء بالبقاع الجميلة، لكن لا أريد أن أتجول في البؤس ، بل أريد أن يكون بحوزتي عدة آلاف من الفرنكات تدر عليّ دخلاً ثابتاً...» هكذا كتب إلى أمه ذات مرة وهو هائم بين اليمن والحبشة، ليصطاد النقود لا القصيدة، فهل ينتقل نفس الجرح من الرجل إلى المرأة ؟ هل تنتقل الأغنية الجريحة من شفة إلى شفة ومن قلبٍ إلى قلب؟

«دقينا فكرنْ دقينا .. دقينا موددن دقينا .. دقينا ناي قجي منّا... دقينا لمنتا قرفيالش .. دقينا فقيقتا سجيني.. »

هل أراك تستحمين في مياه « غومارا» لتخلعي أمراض الكوخ المزمنة، أم تستحمين في نهر «عواش» لتنحدري مع جريانه إلى صحراء « الدناكل»، أم تتسلقين الجلاميد العملاقة في « زيمين» لتصلي إلى السماء وتنشدي نشيد اليأس العارم، لعل السماء تمنحك حبّة من مطرها الفائض ! لماذا لا أراك في الأعياد صبية مبتهجة ترفلين بورود الأورشيل والكاميليا وتتخاطرين بين عساليج الكروم، تاركة أوراق «الهليون» على رؤوس المنتصرين من سادتك أو ترقصين حول النار مكتفية بفرح قدوم «الموسكال» عيدك الأثير! هل تكفي دمعة واحدة لإغراق العالم المظلم، وهل يكفي حزنك لتلطيخ الدنيا بالسواد الداكن؟..

أطفال «الفلاشا» السود يكنسون شوارع تل أبيب ويأكلون من بيارات يافا ومزارع الخليل وحقول نابلس تيناً وعنباً وبرتقالاً بعد أن نسوا كروانات أديس بابا ولاعق العسل وأرملة الفردوس والصقر الراهب وكل التسميات الشاعرية لطيور البلاد، أما أطفال «الفلاشمورا» المنتزعون من أراجيح « غوندار» فإنهم ينشدون الأغاني العبرية وأمهاتهم يخبزن « الماتسا» وكل هذا «الجنس الأسود» الذي فرقه «هيلاسيلاسي»، حفيد بلقيس وسليمان كما كان يتمنى، هو نتاج غرام الجن والغبار وغرام الجراثيم بالغابات الاستوائية، وحتى الرفيق « منغيستومريم » عقد ذات الغرام مع ذلك الجن الهجين وتلك الجراثيم، لكن غريمه التجري «مِلِسْ زيناوي» القادم من دهاليز البيت الأبيض كان أكثرهما دهاء ومكراً، فهيأ الأجواء كلها لهجرات جائعة تبحث عن الكلأ والماء والخضراء، لا عن أرض موعودة بالتبر والجنة والأعناب، بعد أن ذوت الأجساد وتمردت بيضة الطفولة على قشرتها، لتخرج هكذا، طفلة الحبشة الجميلة ذات الابتسامة المنهكة. حفيدة بلقيس السبئية التي عادت مسلتها بعد عقود من العار الجمهوري : يوم نهبها ثور ديكتاتوري يسمونه موسوليني ودكها في قلب روما، ليمجد انتصاره الوهمي على شعب جائع؛ وقبله منذ عهود سالفة قامت الأميرة اليهودية الجميلة « أديث» بتدمير معابد أكسوم، فتخرج حشود بشرية على قرع أجراس الكنائس لترى ١٧٠٠ سنة منطوية في أدراج التاريخ على شكل مسلة ترتفع إلى ثمانين متراً، وكأنما تنهض الآن مملكة سبأ وأكسوم وتعود الملكة بلقيس محفوفة بالزنابق الإلهية وجموع الحوريات الحبشيات اللواتي لم يفهمن شيئاً مما يجري، وطفلتي الجميلة خرجت منذ الصباح الباكر متشحة بالجمال الوحشي النابض في جسدها، تستقبل مع صويحباتها في طوابير طويلة، حجرا جرانيتياً عملاقاً سرقه الطليان في عصر غابر. عاد الحجر الذي كادت تفتك به عاصفة من البرق قبل سنوات وتحيله إلى أشلاء. طفلتي تبتكر

الحكمة من أعماقها الصغيرة: خذوا التاريخ وأعطونا خبزاً وسلاماً، خذوا الحجر وأعطونا الماء..

بين غلالة الأراجيل المطبقة وعتمة المكان المجهول بيضةٌ من ضوء أصفر شفيف أحاط بوجهها، يمكن ملاحظتها بعد تمحيصها وانتزاعها من كتلة اللون البرتقالي، تلك البيضة غير المرئية تماماً وضعتها في حالة جنينية غريبة، وبالابتعاد خطوة قصيرة عن مشهد الفتاة السمراء وبتركيز نافذ يمكن أن يتغير المنظر: الضوء الأصفر الشفيف هو سائل أصفر في حالة الصيرورة والتكون، لم يستقر بعد، على أن الابتعاد خطوة قصيرة أخرى إلى الوراء سيكوّن محاً لبيضة فقدت قشرتها وقد انبثق منها وجه الحبشية المعذب.

خطوة ثالثة إلى الوراء، يتطاول بعدها الحائط الأبيض المحيط بها: يتمدد المشهد المحاصر بعتمة الأراجيل إلى حائط العرض المستكين إلى بياض ناصع: تلتصق صورة الحبشية مع كتلة الحائط: يستقر السائل الأصفر مع قشرة الحائط: وجه معذب بعينين صفراوين داخل بيضة متصالبة ..

بلا إحالات ولا خيال مضطرب هذه اللحظة أعيد النظر إلى تينتي الحبشية: شبكة شعرها المتناثر على شكل ضفائر رفيعة معمولة بدقة وعناية .. كل ضفيرة كأنها مسبحة ناسك هرم، مفتولة بعناية، لكنها مشتبكة ومتناثرة كجذور شجرة عجوز: كأنما ريحٌ غير مرئية فرّقت مسبحات الناسك الهرم وانتزعت شهوة الطفولة وألقتها عارية صفراء في فضيحة الليلة الأولى.

أبو ظبي ٢٠ / ٤ / ٢٠٠٥

الرقصة البنغالية

ينفتح الـSHOBURNA عن ثماني راقصات صغيرات مزهوات بثيابهنّ الفاقعة الألوان، جاعلات من الفضاء الصغير كرنفالاً لألوان الطبيعة البنغالية الصارخة: هذا هو المشهد المباشر والجاذب . إشعاع لوني يضيء المسرح ويكشف شيئاً من الجمهور على شكل رؤوس خلفية متقاربة منصتة إلى إيقاعات محلية يفتقدها في غربته الطويلة. لكن بؤرة التركيز اللوني انصبَّت على قلب المسرح وعلى الراقصات الصغيرات المشعات بألوان ثيابهنَّ البراقة.

يمكن ملاحظة جدارين من المرايا على يمين ويسار المسرح، وهما جداران مرآويان يحصران الراقصات الصغيرات في مستطيل يكفي أن يؤدين فيه رقصات الليل الطويل، وعادة ما تنعكس صورهنَّ على مرايا الجدران، أو صور الجمهور المخمور بصخب الموسيقى ولوعة الفراق الطويل. موسيقى « طاغور» التي تكونت من قصائد هذا الهندي العظيم وموسيقى « كازي نزرول» الشاعر الذي تحولت قصائده إلى موسيقى شعبية تصدح بها الحناجر وتخف على وقعها الأقدام والأجساد.

إلى يسار المسرح، بعد الجدار العاكس الثاني، ثمة راقصة تاسعة، تجلس وحدها على دكة من الموزائيك وإلى جانبها مبخرة يتصاعد منها دخان أبيض كروح أدركتها ليلة الخطايا، وسلة ماء مطهِّر للذنوب

القديمة. لا تبدو تلك المرأة مغيبة أبداً، بدلالة البقعة الضوئية الساقطة عليها من أعلى السقف، كما لو ثمة قصدية بتنوير حضورها. كانت أكبرهنَ سناً وأكثرهن خبرة في تثوير الجمهور المتفاعل مع أحلامه المقموعة في أزمان اختلط فيها البُعد والوحشة الأبدية.
بائع الورد لا يغادر المكان حتى انفضاض ليل الخطايا: فتى لم يخضرَ شاربه، حاجباه غليظان، لكن عينيه الواسعتين المكحولتين تشيان بجديته وهو يعرض أقواس الورد على ساعده المتصالب: الورد الأحمر والأبيض والبنفسجي تحديداً. كان سعيداً بسرواله « اللونجي » المختلط الألوان وقميصه المشدود على رقبته بوردة قطنية بيضاء.
الراقصة التاسعة هي «أم» الراقصات وروحهنَ في ليل الرقص الطويل وتعويذتهنَ في رحلة الموسيقى الصاخبة إلى عوالم الخمرة، والأمل المنعقد بين رنين الخلاخل الأسطورية واهتزاز الأجساد المفعمة بأريج الحب المتفتح في سمفونية الغربة كزهور وحشية، وهي تترى هادئة أو صاخبة: تطرب الرؤوس الممغنطة وتعيد لحظة مسروقة من حياة سرية يكتنفها التوجس والغموض.
لا تبدو لقطة الراقصات الثماني ثابتة، فالمساحة المشعة متحركة بثياب «الشالوار» المزركشة وبهاء الألوان الجذابة، وفي الوقت الذي كانت فيه وجوههن متفتحة ومبتسمة إلى حضور حالم ومخمور، كانت أجسادهنَ تتساوق مع إيقاعات منغمة تتكرر بين حين وحين، تتفتق عبقرية الجسد عن أسرار لا يعرفها إلا من كان غارقاً في عزلته السرمدية، قريباً من الروح المعذبة التي هجرتها مواسم الماء وذبلت فيها أوراد الربيع.
الراقصة الأولى تتباهى بشعرها الطويل النازل على كتفيها كشلال أسود. حاجباها مرسومان بدقة متناهية كخيطين رفيعين يكادان ينمسحان لشدة الضوء الساطع عليهما. بدت أصغر من عمرها كثيراً، ربما هي كذلك، لكن يمكن الاعتراف بطفولتها كثيراً، طفولة المرقص

المتأرجحة، كان ثوبها بنفسجياً غامقاً.
أم الراقصات وروحهن الغامضة هي سُرّة المشهد وسِرّه. تقلقها الأرواح الشريرة المتربصة بأجساد فتياتها الساهرات تحت شحنات التراسل بينهنّ وبين الجمهور الغارق في كل شيء أمام مهرجان الألوان الفياضة وانعتاق الأجساد في دورة الشبق الليلية التي لا تنتهي.
عبّرت الراقصة الثانية عن غبطتها وهي تمد ساعدين ناعمتين اكتظتا بالأساور والمعاضد وامتزجت فيها سبعة ألوان غامقة، فبدا ساعداها كقوسي قزح يملآن حيزها بألعاب وصور طفولية ماضية ليس من اليسير استحضارها في ليالٍ كهذه.
الراقصة التاسعة لا ترقص عادة. انطوى زمانها البعيد: يوم كانت صبية تتناقلها المراكب والطائرات بين القارات الدافئة والباردة وكان جسدها يتلوى على مسارح العواصم وحاناتها الضيقة، وكانت الأرواح الشريرة تجتاح جسدها الفتي وتزرع فيه خمرة الليل المعفرة بالخطايا والذنوب .. الآن مات الجسد وبقيت الروح.. تحول الجسد العملاق إلى خمرة رديئة، وبقيت أنفاس الأمس وحدها عمياء في ليل الغربة السكران.
الراقصة الثالثة أكثرهن هوساً بزرع الورود الملونة على شعرها المنسدل، كما لو أنها مزهرية تتفتح في أول الإيقاعات الراقصة. ارتدت ثوباً برتقالياً فضفاضاً لا يشف عن شيء من جسدها النحيف . أسنانها بيضاء لاصفة. وحاجباها متصلانِ بغزارة كقوسين ملتصقين.
لم يكن وجود بائع الورد عفوياً، فهو الشفرة المعلنة بين فتيات المرقص والزبائن المنهكين بالأماني والغرائز والشرود إلى الغرف السرية القميئة . بائع الورد الأسمر ذو الشارب الكثيف هندي الشكل أكثر الحاضرين زهواً: إنه حامل ورد العشاق العابرين.
الراقصة الرابعة متسربلة بثوبٍ أحمر قرمزي فاقع. تركت ساعديها عاريتين وكشفت جزءاً مستحيلاً من صدرها الصغير، كانت الوحيدة

التي نفرت من خط الرقص كغزالة مبتعدة عن قطيع متوحش. كانت أكثرهنَ وحشية على ما يبدو، تركت خط الرقص منفعلة، منقادة وراء فكرة غير معروفة. هل كانت تطلق ثمرة جسدها إلى العراء ؟ هل كانت تطلق خطيئة الجسد لتحرره من قيود الليل الثقيلة ؟

الجداران المرآويان لم يكشفا جوانب أخرى من المرقص: ملصقات سياحية للطبيعة البنغالية، أشجار جوز الهند العملاقة، مشاهد مختلفة من باريسال وشيتاغون وكولنا وراج شاني وسيلهت، نساء الساري الفضفاض بألوانه البهيجة، الشاي البنغالي السحري، اللباس البنجابي لأثرياء دكا، سياح بيض الوجوه يتخاطرون بين غابات خضراء وجزر تكاد المياه تبتلعها..

أكثر ما يشد الجمهور المتوفز موسيقى « الراكاس» التي تستقدم صيحات الغابات المنغلقة وشلالات المطر الهادرة على سقوف الأكواخ، فتشد الراقصات الصغيرات أجسادهنَ النحيفة في دوران متعاقب تحت السطوع الأثير؛ غير أنهنَ يتباطأن بعد وقتٍ محموم ملأهنّ بالعرق الغزير، وهن يتبعن طبول «راميش شيل» القادمة من أقصى الطفولة الضائعة، وصنوج «هاسون راجا» التي تحفر في لحمهنَ شبق البدو المختلطين في جمهور يكاد يكون مغيباً. وأشعار «لالون فوكير» التي تبعث على التأمل وتبث الهدوء في مياسم الأجساد التي بللها شبقٌ ضال وأمل ربما قتلته أمواج تسونامي في آخر لحظة.

كانت الراقصة الخامسة مزركشة بالأصداف البحرية والإكسسوارات اللمّاعة. تطوّق عنقها قلادة صدفية تناوبت فيها بضعة ألوان حارة، تلصف في منتصف جبهتها نقطة حمراء تبدو وكأنها لا تستقر في مكان واحد، وكان الساري الذي ترتديه أزرق بلون الخلجان البنغالية، وكان وجهها المثلث مختلج الملامح، لكنها مصرة على أن تبتسم في هذا الوقت بالذات من كل ليلة.

الراقصة السادسة اختلفت عن صويحباتها بقرطيها الطويلين المتدليين

حتى صدرها الناهد، بحلقة دائرية ألماسية كاذبة شكّت أنفها الصغير، وبنجمة صفراء بين حاجبيها، غير أن الراقصة السابعة تمادت بعري صدرها وبان طيف مذهل يشف عن حلمة بنفسجية مُثارة على نحو غير طبيعي، هذه البيهارية السمراء ذات الساري الأصفر أكثر الفتيات انسجاماً مع طبول الغابات وشلالات المطر الهادرة على السقوف

آخر الراقصات أصغرهن سناً، ارتبكت على شفتيها ابتسامة خجولة، وتركت ملابسها القمحية إلى الريح الراقصة من تحتها، وانطبعت تحت مبسمها هالة من ضوء مباغت كشف نقطتها البيضاء وألقى ظلاً شفيفاً على حاجبيها المتصلين.

مبخرة أم الراقصات ما تزال تنفث دخاناً أبيض كما الروح، يتلوى أمامها بعذاب لا تعرفه إلا هيْ؛ وعندما ينتصف الليل وتتثاقل الخمرة في الرؤوس، تتهيأ الفتيات إلى رقصة « أجيباهاهل » وتتهيأ أمّهنَ الروحية في مكانها وهي تمسك سلة الماء المقدس وتغمس أطراف أصابعها فيها، متمتمة، فيما تتجه أنظار الراقصات الثماني إليها في تجاذب أمومي حنون، كما لو يستلمن شفرة البدء بخلخلة الأجساد وتفكيك عناصرها السجينة وإطلاق ريحها المعطرة في آخر جولة من كرنفال الليل المقدس.

الـ«أجيباهاهل» مسك الختام في الـ SHOBURNA ولوعة الانتظار الراقص على مدار الساعات. تهيأت راقصة الماضي لإمساك أرواح فتياتها قبل أن تغزوها الأرواح الشريرة المدنسة. انتهت «البيبا » و « الكيبا» و«النيشا» و « السوهيلي» رقصات التحفيز الأول لمغْنطة الرؤوس. اختبار الأجساد الصغيرة في مطاولتها على تثوير الرؤوس الخدرة. نُسيت أشعار طاغور وكازي نزرول وفوكير في صخب الليل. وتلاشت أصداء موسيقى الراكاس وطبول شيل وصنوج راجا. تماهت خطيئة الجسد المُثار بالآتي من الليل.

الرقصة البنغالية الأخيرة: أجيباهاهل. يتوتر المسرح. تنسحب

الراقصات إلى غرفة جانبية، فيتركن وراءهن عطراً راقصاً. بائع الورد يتجول بين الموائد غير المرئية.

تعود الراقصات الصغيرات بعد دقائق، تتقدمهن راقصة الماضي: تنحني وتمد أصابع مرتشعة لتلمس خشبة المسرح وترفعها إلى جبهتها في ثلاث حركات متوترة ثم تصعد وسط المسرح. تتقدم ذات الساري البرتقالي وتلمس الخشبة بأصابعها بخشوع ذليل. الأخريات يتقدمن بالتناوب، يمارسن ذات الطقس ويتوزعن على يمين ويسار الراقصة التاسعة في خط مستقيم. الجمهور المخمور يفيق ويتحول إلى عين كبيرة منساقاً وراء الصمت العجيب.

حكيمة الليل القديمة تفترق عن بناتها الصغيرات وتلتقط من يد بائع الورد إبريقاً صغيراً. تغمس أصابعها وتُخرجها وترش على الجمهور رذاذاً عطراً. تهبط من المسرح وتتوزع بين الموائد، حريصة أن تنثر ماءها المقدس على رؤوس كل الحاضرين. تصعد إلى المسرح ثانية وتقف أمام بناتها الصغيرات المخذولات في جو سحري خرج من لهاث الرقص ودخل إلى تمجيد المجهول والإنصات لطقس لابد منه، فالحكيمة العارفة بماضيها الراقص، لها مقدرة سحرية أن تطرد المدنَس من الرؤوس. يتقطر الماء المقدس من أصابعها وتتركه ينقط على رأس الفتاة الأولى التي أحنت رأسها بخشوع، ثم رشّت منه بضع قطرات على صدرها. كل الفتيات منسحقات تحت وطأة الصمت. مرت عليهن واحدة واحدة. تنقلت بين الثياب الملونة. كانت أصابعها تنزف الرذاذ على رؤوس وصدور فتياتها المحنيَات وهنّ لا يرين وجه حكيمتهنّ المحتقن. انسحبت وتركت الإبريق في مكان من المسرح، ثم التقطت من بائع الورد مبخرة صغيرة، تعالى دخانها الأثير يتلوى بين الفتيات.مرت عليهن واحدة واحدة. نفخت على وجوههن قبضات من دخان سحري حريف. ثم نزلت بين الموائد وبخّرت الرؤوس المؤرقة وعادت من جديد لتجلس في مكانها الأول على دكة الموزائيك.

تقدمت الفتيات الثمان إلى مقدمة المسرح وقد غطين وجوههن بحجابات شفافة من القماش. جلسن ملتصقات محنيات الرؤوس. فبدون كعرائس ملونة يغمرهن الخفر والحياء والخوف أيضاً، فيما انطلقت تراتيل من مكان ما وقد صاحبتها موسيقى هادئة وتمتمات الحكيمة القديمة التي يمكن أن تسمعها الفتيات المنغمرات في جلال الموقف ورهبته. انسحب الليل إلى مداه البعيد بين التراتيل. بكت الفتيات. تبللت وجوههن بالدموع. الجمهور ينتظر بارتياب. لحظة البكاء ذروة التطهر. ثمة مَن يبكي بصمت. يتفاعل مع الفتيات وهو يخطو إلى الخطيئة. انتهت نوبة البكاء. هرعت الحكيمة إلى بناتها. نهضت الفتيات وكأن عبئاً ثقيلاً انزاح من صدورهن وقلوبهن. تبدلت وجوههن: خلعن الحجابات. صرن أكثر مرحاً وابتسامات ملونة تتخاطف على ثغورهن.قبّلتهن الحكيمة جميعهن بفرح طفولي. تعانقن باحتفال طفولي بعد صلاة التطهر والتكفير. عادت أجواء الانفتاح تستشري في المسرح الصغير. الحاضرون يصفقون بتواصل.. كل شيء مر بسلام. انهزمت الأرواح الشريرة والراقصات الصغيرات في مأمن من المجهول هذه اللحظات الراقصة.

الآن ستبدأ الرقصة البنغالية الأخيرة: أجيباهاهل.

أبو ظبي١٧ / ٢ / ٢٠٠٥

ميزوبوتاميا

كان على البروفسور «كاترين» أستاذة علم التشريح في الجامعة الأمريكية أن تكيّف طالباتها الذكيات إلى استيعاب درس الجسد بطريقة مباشرة، دون التسرع في زق المعلومات الفائضة والمستنبطة من حكمة التعذيب العشوائي التي أخفاها الفنان ج الرافديني في جداريته الإشكالية، عندما استعان بالمخيلة والتمويه واستخدام عناصر غير مرئية وربما استعان بالسحر ومشتقاته من العزائم والتمائم والأوفاق والعناصر الحية للدمى وجلد الأفعى الملتف على قطر الجدارية وجلود مملحة أخرى ألصقها على الأجزاء الترابية من الجدارية.

كنتَ أعرف أن ظهيرة اليوم السابع خصصت لقسم التشريح بالجامعة الأمريكية في العاصمة برجاء من الناشطة البروفسور كاترين إلى إدارة المعرض: فهذه السيدة الحيوية زارت المعرض في ظهيرة قائظة بعد أنْ خفتت حركة الزائرين واكتشفت مصادفة حفلة التعذيب المتوحشة في عرض اليوم الثالث وظهيرته العمودية. كانت الثقوب السبعة التي تثقب سقف الصالة التراثية كطريقة للتهوية ودخول الشمس تسحب حُزماً غليظة في ضوء الشمس فينير بعضها مركز اللوحة تماماً، فيما تنتشر بقية الحزم على أجزاء متساوية من الجدارية كمصابيح كشافة، وعبر

هذه الإنارة؛ غير المتوقعة: رأت ما لم ترهُ في يوميها الماضيين حينما انضمت صباح يوم الافتتاح، وعادت مساء لزيارته ثانية. غير أن ظهيرة اليوم الثالث جاءت بها حُزم الضوء النازلة من فتحات الثقوب إلى مركز ميزوبوتاميا؛ حيث انكشفت ملامح السجن القديم والرؤوس المخروطية المكيَّسة وأشكال الجلادين والمجندات الصغيرات وأبواز الكلاب البوليسية المخيفة. كانت ترى ذلك بما يشبه الوضوح وهو يتجلى حقيقةً وتزول غمامات الدخان المتصاعدة من مبخرة الجدارية، وتنحسر الألوان القليلة كما لو تنكمش، لتبرز كتل العذاب البشري متشكلة بأجساد مصفوفة أو مكومة بشكل تل لحمي تحيطها كلاب وسلاسل وأكياس وأسواط وبنادق. كان ما يشبه الرؤيا الخاطفة مرقت في خاطرها وهي تديم النظر إلى بقع البراجيل السائرة ببطء على جسد اللوحة وجسد ميزوبوتاميا.

استعانت بذاكرتها ومعرفتها للبلاد وحددت خريطة ما برأسها لطرد هذا الاستبدال المفاجئ ونوعه الفجائعي؛ إلا أنها كانت في سباق مع الشمس ودورة العقل في تشتته السريع لانكشاف المكان عن صرخة جماعية هادرة مغنطت حركة الجدارية بكاملها وأدخلتها في سبات موضعي غريب.

قالت البروفسور كاترين لنفسها: هناك لوثة ما.. هناك عبقرية ما في خطأ ما، في سر ما.

التقطت كاميرتها بعجالة أشكال المعذبين الذين برزوا فجأة، يكابدون في ظلمة خاثرة وراء قضبان سميكة وباحات رطبة. (رأت) الصراخ المكمَّم والبكاء الأعزل والأجساد المهانة. لم تصدق أنها تتنقل بين أروقة كابوس وأن عينيها تسارعان لمسح الفضاء المنكشف: دخلت عتمة السجن الشهير الذي تحرسه مجندات المارينز، وكانت طاقتها النفسية لحظة الاكتشاف المرئي تضاعفت إلى حدودٍ قصوى وتضامنت مع من قال بدهاء الرافديني وخلطته السحرية في هذا الأثر المُعجِز،

لذلك ظلت تتساءل طيلة المساء بلوثة الصحو المشوش: هل عرفوا تاريخ هذه الأجساد؟ هل فضحتهم أجسادكم السمراء؟ هل صرخت؟ هل بكت؟ هل تألمت؟ هل استنجدت بمياه الفراتين؟
(غالباً ما يكون التعذيب نوعاً من الرقص)

كنتُ أعرف أن البروفسور كاترين عالمة بالجسد وتشريحه. بأسراره وغوامضه وتأويلاته. بحياته وموته. بنزقه واحتداماته وتبدلاته. بل حتى في تألقه وانبهاره وتجلياته المختلفة، بصراعه المرير مع حامله في سنواته الحية. كنتْ أعرف عِلْم هذه العالمة وهي تستنطق الجسد حتى لو كان فارق الحياة على مدار عملها العلمي المكتنز بالتجربة الحية، وهذه المرّة رؤيا المصادفة الفنية قد أضافت إلى يقينها أن الرافديني يشتغل بدهاء ودراية وريشته ماضية في جسد البلاد كمشرط باشط يشق طريقه إلى كل استنتاج. قالت إنه عبقري هذا الميزوبوتامي العنيد، تجريبي عارف بلغز موت البلاد الدائم. كان القدر وحده أخرجها من الجامعة ذات ظهيرة لتجد أنها أمام امتحان الجسد وكارثيته. كنت أعرف أن هذه السيدة الناشطة ذات التاريخ العلمي والإنساني أستاذة عصامية وناشطة في حقوق الإنسان وكانت مهنتها كطبيبة تشريح أتاحت لها معرفة سرية لخبايا الجسد وخفاياه في لحظات احتضاره وموته، كانت تعرف النبض الأخير للجسد الذي يواجه الفناء والانتهاء، نبض الألم القاتل، رفسة اللحظة الأخيرة فيه، اختلاجات المسامات في انغلاقها على ظلام أبدي دامس. ولهذا ليس غريباً أن تحمل طالباتها الذكيات إلى مشرحة الجدارية بدلاً من مشرحة الطب العدلي، لا لإثبات أنها اكتشفت سراً من أسرار هذا العمل الفني في ضوء الظهيرة الكشاف، لكن علاقتها الحميمة بالجسد دعت طالباتها الناشئات إلى سبر أغوار هذا العالم الذي يُكدّس هكذا ويُهان بوحشية، وكانت تردد دائماً في حصصها الدراسية: الجسد ليس هو ما تحمله، الجسد هو أنت!

(غالباً ما يكون التعذيب نوعاً من الرقص)

كانت تحث فتياتها على الوصول إلى سر الجسد وانتفاضة الحياة فيه وتدوين أبجدية الموت البطيء. كانت أكثر زوار المعرض حماسة في تثوير مشكلة الجسد الآدمي عندما يحولونه إلى مأدبة ورقصة سكرى على أنغام الجاز وزفيف الرصاص تحت أكياس سود لا لون فيها ولا حياة، قبور فوق الرؤوس تتذكرها وهي تهتف لمجد الجسد في غوانتانامو وأبو غريب عندما تركت العاصمة المحافظة، وانتدبت جموع الشباب في تظاهرات حشدت فيها مئات المناوئين بعرّاب بلدها رامسفيلد الذي وصفته بأنه ضفدع البنتاغون ذو الرائحة الكريهة، كما وصفتهُ بـ «عدو الجسد» في لقاءاتها التلفازية المتكررة.

أوقفت فتياتها أمام مركز اللوحة قبل دخول الحزم الضوئية ودعتهنّ للتأمل. خارج الصالة كانت الشمس تترصد مركز الظهيرة. قالت لطالباتها: تأملن مساحة المركز. دائرة ميزوبوتاميا: ثمة ألوان فاترة، متنملة، تتسلقها فتائل دخان المبخرة المحلية، ناشرة روائح مختلفة كانت أكثرها قوة رائحة اللّبان والجاوي المهيجة. ثمة مستطيل أشبه باللوح الصلب يبدو مخططه خفيفاً لمن يديمِ الإمعان في تتبع خطوطه المستقيمة، رأس فرس نافرة، قضبان مخلعة، طفل، سنابل، سنابك، صهيل، أقدام ثابتة، سواعد عضلة. ثم تتنمل الصور الأخرى وتتضبب كأنما تزاحمها من تحت الألوان صورٌ أخرى حجبتها غمامة من ألوان داكنة وفتائل الدخان المتغالظة.

بدت إحدى طالباتها تعاني من الغثيان وضيق النفس. خرجت من الصالة دامعة العينين، فيما بدت الأخريات معتكفات بقلق، ربما بشك، منتظرات بقعة الشمس التي ستقدم بعد قليل من براجيل الصالة التراثية المصممة على شكل سفينة حربية قديمة.

(غالباً ما يكون التعذيب نوعاً من الرقص)

دقت الساعة في قلب البروفسور بالتوهجات الأولى للفتحات القديمة.

لم تقلق كما طالباتها.كان قلبها مشرقاً لانبجاس حافات الظهيرة على فوهات السقف القديم. كانت تنتظر بثقة ثابتة، بطاقة روحية راكزة حين تداعت أولى الأشعة المائلة من أعلى الجدارية ومشت تجر وراءها حبالاً غليظة من الغبار منحدرة باتجاه مائل إلى مركز لن تخطئ البروفسور كاترين في تحديده أبدا؛ كأنما روحها تنبئها بالحدث الجلل الذي كبّل أجساد الفتية والشباب؛ فانضمّت بحماسة لافتة وهي تعلن لطالباتها المتحفزات بدء ظهور حفلة التعذيب الرهيبة لأجساد بشرية التي تحدثت عنها يوم أمس في استهلال محاضرتها اليومية.

رن صوت البروفسور كاترين كأنها في قاعة درس مستبقة ثواني الحقيقة المرّة: بعد ثوان قليلة ستنزل بقعة الشمس إلى هنا (أشارت إلى مركز الجدارية الذي كشف ساحة دائرية تحيط بالمشهد كله) انتبهن جيداً. لحظات فقط وأريدكنّ التركيز على التبدلات السريعة لمشهد خفي. هناك نصبان، أحدهما يأكل الآخر. أعني أحدهما يريد اللحاق بدوائر الشمس، والآخر لا يريد التواري ويغادر جداره الأسمنتي المفترض: سينكشف لكنّ صراع الألوان القليلة. انتبهن إلى اللون الأسود الذي سيظهر بشكل واضح مع ضوء الشمس راسماً الرؤوس المغيّبة. انتبهن إلى أن الوقت سريعٌ جداً مثل كسوف جزئي سيعبر دون أن يراه أحد ما لم يكن على استعداد مسبق. سترين ما أخبرتكنّ به. حفلة التعذيب وصراع الأجساد المهانة والرؤوس المخروطية السوداء. تعذيب الجسد هو درسنا القادم. هذه أجسادٌ حية وليست ميتة كما اعتدتنّ أن ترين ذلك في المشرحة الطبية، وليس مهماً أن تعرفن أن بقع الشمس هي جزء من تكوين اللوحة كما أعتقد.

زحفت البقع السبع مضيئة حوافر نصب غير مرني تماماً وهي تجر وراءها ظلاً لا حجم له حتى استقرت مع الزمن المتثاقل في رؤوس الطالبات على رأس مخروطي أسود يشبه رؤوس المهرجين والبهاليل. ينتهي بقدمين عاريتين مقيدتين بسلاسل حديد ضخمة. الضوء الذي

يشع بعيني السيدة كاترين وطالباتها كشف شعاعه المنتشر من كل الجهات رؤوساً أخرى، وعيوناً معصوبة، وأجساداً تتدلى من حوامل معدنية وقضبان صلبة، وسياطاً ملتوية كأفاعي الغابات الإستوائية، وعصي منتقاة من غابات كارولينا.

(غالباً ما يكون التعذيب نوعاً من الرقص)

أطبق الصمت على الطالبات واستاذتهنَ الواقفة كرمح، وبقيت العيون تترصد دوائر الشمس النازلة بتمهل، لتكشف سرّة المشهد ببطء ممل: المشهد الفجائعي، فيما غامت الرؤوس بالتدريج وانحسر اللون الأصفر كلياً وتكاثف دخان المبخرة المفتوحة كفم شيطاني ساخن وانحبست أنفاس الطالبات؛ حتى هواتفهن الصغيرة كفت عن التصوير بهبوط موسيقى جنائزية عزفتها عظام مكومة أسفل الأقدام المكبلة، وبنزول قطرات دم من كؤوس الرماد المنبعثة بعناية في حيز مفترض لنصب آخر. انتظم سقوطها محدثاً بقبقة متساوقة، اكتظ بالأنين بعد خفوت موسيقى العظام وتلاشيها كلياً. أنين جذب البروفسور كاترين في ثالث يوم لزيارتها السريعة التي لم تخطط لها وملأ روحها بالأسئلة والألم والأسى.

بزيادة قطرات الدم الساقطة يزداد الأنين فتطبق على طالبات التشريح بلاغة من صمت يشوبه التوتر واحتباس الأنفاس وقلق اللحظات الشمسية في حضورها السحري، فيما تتسع بقع الشمس المنحدرة وتنفرش ساطعة على كتل أجساد ملتحمة، خائفة، تحيطها كلابٌ ومخالب وأسواط ومجندات ثملات شبه عاريات وبنادق آلية قصيرة وحراب رهيفة تلمع أنصالها تحت الوهج الذي سطع كلياً.

نشجت إحدى الطالبات محتقنة، مرتعشة الأوصال؛ أحاطت بجسدها رجفةٌ باردة، كانت عاطفية إلى حد كبير وهي ترى سجن الرؤوس المكيّسة وتضخم الأجساد العارية لحد الانفجار. تستعيد الواقع كلياً وتعود إليه وتخرج من الجدارية إلى فناءات العذاب الأكيد. كان الصمت

هـانلاً ومدوياً في رؤوس الطالبات، وكشاف البراجيل الموحّد يضيء وجوهـهنّ الصـغيرة في مشرحـة الرافـديـني الـتـي بـدت مـتـقـنـة إلى حـد الـرهـبـة، يضـاعـفـهـا أنين الأجسـاد الملـتـويـة عـلى بـعـضـهـا وهـي تـكـتـم صرخة الحياء الواحدة.

كـنـت أرقب المشـهـد مشدوداً، وسـيـدة الـتـشريـح صـامـتـة كـحـجـر ثـقـيـل بـانـتـظـار تـتـالي المشهد كـامـلاً مع الزحف البطيء لبقع الظهيرة الـنـازلـة على جسد اللوحة.

(غالباً ما يكون التعذيب نوعاً من الرقص)

انكشفت حقيقة البقعة المخفية إلى الحد الذي رأت فيه طالبات التشريح أنهنّ يواجهن مكاناً جديداً انبثق من ركام الجدارية وسطع على نحو يدعو للدهشة والخوف؛ فالأشعة النازلة بغبارها الملتوي فضحت مكان الـرعـب، فـيـمـا تـبـدّت الصـورة كـامـلـة تشفّ عن خراب استـعـمر أرواح الفتيات في توقهنّ إلى الكشف الصعب الذي استعاره ج الرافديني من واقع مخيف وزجّه بطريقة بارعة في تضاعيف الجدارية وفي مركز مركزها تماماً، إبدالاً واستبدالاً لنصب شامخ يتوارى كلياً أمام مشهد التعذيب الذي تتصدره الصبية « ليندي إينكلاند» ذات الواحد والعشرين عاماً، فتاة المعسكرات الخلفية وحانات الرقص الليلي المعقودة على مارشات عسكرية.

كانت تسند مفصل يدها على دكة طابوقية متآكلة أقصر من قامتها القصيرة، تنظر إلى تل اللحم بكراهية ملموسة تجسدت في انزواء حاجبيها وعينيها المبحلقتين بالتحام الأجساد المنثنية على بعضها في مشهد العار الجماعي الذي تلبّسته عنوة.

قالت لصديقها الجندي تشارلز جرامز وهي تنفث في وجهه خرطوشة دخان سيجارتها:

– هؤلاء لا يستحقون الحياة! بُلهاء!

ضحكةٌ داعرة وأنينٌ صامت. كلبٌ يتشمم رائحة مشتركة وهو مهيأ

للانقضاض لولا سلسلة حديد تجر رقبته فتوقِف بوزه ومناخيره إلى أقرب جسد متكور. لا شيء في ذلك الفزع الفردي والجماعي يوحي بنهاية مرسومة. رضخ الجميع إلى مزبلة إينكلاند وكلابها المسعورة: مخالب وأنياب وعواء ذئبي وجسد يختصر الموقعة. عارٍ إلا من حقيقته المفضوحة، يتقدم الفضاء المستطيل المنكشف تحت فتحات الشمس كأنه ما وُضع قبل نصف قرن إلا لزينة العاصمة المتباهية بولاتها المتعاقبين على أحواض الدم، وتاريخها المتطامن إلى وجوده في موجات دجلة العابق بالزمن المتفتت، حينما يمرق كل فجر ويبخ رذاذه على جدران القصر العباسي، وسوق الوراقين الذي تحول إلى مسلخ من الحبر والرماد، والأجساد المفتتة كالطباشير قبل أسابيع قليلة. وما كان لذلك المستطيل أن يظل لولا نسيانه في مفارقة من مفارقات عقود تنامت على النسيان المقصود والذكرى الوطنية المفتعلة!

(غالباً ما يكون التعذيب نوعاً من الرقص)

إينكلاند تضع سيجارتها في فمها بشكل مائل، مقتحمة ترسانة الأجساد العارية، المصفوفة برؤوس مكيَّسة، موثوقة الأيدي، وأصابعها تشير إلى الأعضاء التناسلية المخذولة التي رسمها الرافديني كقطع تالفة ألصقت في محراب الجسد المرتجف، يوم كان حامل اللذة والرعشة الدافئة ولكنه بات حامل الألم.

مستطيل النصب المفترض يسجل صيحات العذاب وأنين الحصار الأسود وبكاء الأجساد الخجولة، فتسقط في باحة الرطوبة أقنعة الروح متشظية بين أفخاذ الصبية القصيرة وأنياب الكلاب المدربة على استلاب الحواس، لكن الجسد يتحامل على موته ويضخ فيه أناشيد البقاء الأعزل وصورة البقاء المحتوم.

عندما تعزف إينكلاند وتر الفكاهة المريرة والسادية المتفشية فيها على أعضاء الرجال المتضامنين مع مصائرهم الذائبة، تُعزف في أروقة ثانية أناشيد أمهات منصهرات في تحولات ميزوبوتاميا

الدراماتيكية لتطفو أغاني المهود الأولى وتُستحضر روحٌ قديمة تعبر الآفاق المترامية بصيحات الغرانيق الموسمية وصليل العصافير الأزلية في حقول الشمس الساطعة، وفي أروقة ثالثة لا تعرفها إينكلاند ولم تسمع بها، يعزف رعاة المعابد في مزامير القصب أغنيات السيد الغائب الذي سيعود إلى «ننجرسو» وإلى معبده الكبير، وتحمل الطيور الآشورية طنابير الأفراح إلى مواسم العزاء كتعويذة سحرية وتميمة بقاء رغم الأهوال، وليس بعيداً من هنا تنهمر.موجاتٌ أثيرة لسمفونية حرائق آشورية وبابلية على اصطفاقات العصي الإيقاعية والصنوج والشخاليل والصلاصل والأجراس والجلاجل والكنانير والمصافر، حين تعبر كاهنات المعابد شارع الموكب الملكي ودبابات المارينز، يقرأن على رؤوس الأسرى تراتيل الأب الغائب وغناء المدينة البهيجة بين رقصة الثيران الملكية وصيحة الشقرّاق السعيد وهو يأذن لملكات سومر وأكد ولكش بالصلاة الخضراء:

اسمعي يا صبية المعسكرات الخلفية أنغام الفرح الميزوبوتامي التي تركها لكم موسيقار آشوري في أرجائكم الزاهية. اذهبي إلى متحف شيكاغو واسألي عن قيثارة ذات ١١ وتراً وقولي لحارس المتحف: لماذا عندما تموت ملكات ميزوبوتاميا يأخذن إلى قبورهن هذه القيثارات؟!.

لونٌ أزرق وحيد تكشفه الشمس هذه اللحظة وهي تمسح المشهد كاملاً. خيط رفيع يرسم جدارية الأحرار ويحدد أبعادها الحقيقية كما يبدو. وربما يجد المرء بالتدقيق والملاحظة أن الرافديني وضع رقمي ٥٠ و ١٠ دلالة عرض وارتفاع قاعدة النصب وهما الرقمان اللذان حرص الرافديني على إبرازهما بين زحمة الأجساد العارية والكلاب البوليسية المتوثبة للافتراس، فيما انفضح جسد آخر عارٍ كعادة إينكلاند أن تتلذذ بالعري المتخاذل.

(غالباً ما يكون التعذيب نوعاً من الرقص)

ندوبٌ سود في مؤخرة الجسد. مباسم سجائر مغروزة بقوة وصرخات

غير مسموعة تهز الصالة وتهز الفتيات المنذهلات. يزداد المشهد تأثيراً بوقوف بقعة شمسية صغيرة على مؤخرات مسلوخة لأجساد متلاحمة قسراً لا رؤوس لها. فيما كان الضوء النافذ يكشف أجساداً كاملة لوجوه ليست غريبة على الرافديني، لذلك أفصح عنها بوضوح ودقق في ملامح شبابها: أرادوها أن تواجه حياءها وخجلها الشرقي كي تزداد ضعة وإذلالاً، وجعلت بعض الوجوه تعرف بعضها لكسر كبريائها الموروثة، وإينكلاند الصغيرة تعقد أصابعها وتمسّد عضواً منكمشاً كدودة القز وتضحك بأسنان صفراء.

كان دخان المبخرة يتصاعد وتزداد حرارته ورائحته الحريفة وجعل طالبات التشريح يتنفسن بصعوبة في وقت يتسارع أو يتباطأ في دورة شمس الظهيرة وصراحة المشهد المتاح.

سواعد محفورة بالمزارف تترك وراءها آهات جنائزية. حلمات وردية مقطوفة بمقصات صغيرة. جسد مغسول بالعرق ويدان عليهما آثار تشطيب تنوءان بحمل مربع أسمنتي جبلي، يتقدم إلى مسافة غير منظورة وإلى جانبه جسد مقلوب كلياً. ساقان مربوطتان في سقف وجسد مندلق: قعر الرأس يلامس أرضية نتنة وعينان تنظران إلى مقلوب الأشياء المحيطة بهما وعري مستسلم إلى أقصى حدود الاستسلام، ثم جسد مثلث يقف على صخرة تحيطه أسلاك مكهربة فيبدو كطائر نحس قادم من عصور الخراب، وماريـنزي غليظ يبرك بثقله العنيف على ظهرٍ مطحون. لكمات، كدمات، صراخ، أنين، أشباح قادمة من مغارات تاريخية هجرتها الحياة.

اختفت الأجزاء العليا من المشهد وبدت الأشعة السبعة تنحدر وتتوسع خافتة الضوء. تضيع الكثير من ملامح المرأى المفزع، فيما سكتت أصوات الشخاليل والأجراس، وكفت حناجر كاهنات الليل والمعابد عن الغناء الضاري، وحلّ هدوءٌ غريب ساهم في تكريسه تخافت دخان المبخرة.

انفتحت أضواء الصالة؛ هكذا؛ وتهاوت طالبات التشريح المشدودات بحبل الشمس الصغيرة الآفلة. فلتت من عيون الجلادين والجلادات لكن الأجساد المعذبة والصراخ المكموم ظل يثير أوجاع قلوبهنَ الصغيرة.
كانت البروفسور كاترين تقود طالباتها إلى ركن آخر من الصالة، كأنما لتنعشهنَ برياح البحر القريبة.
كنت الوحيد الذي زجني المؤلف في هذا التنور الميزوبوتامي الساخن لتوصيف المشاهدات والرؤى والوقوف على صحة الكشف الكاتريني المتميز الذي ظل مثار شك، وسأكون أول من يطلق هذا الكشف الفني في جدارية الرافديني عبر البروفسور كاترين وهي تقرأ الجسد قبل موته.
تبادلت طالبات التشريح فزع اللحظات الثقيلة ووطأة الانتظار السائر على هذيانات مخيفة وأجساد متهاوية في قاعات وباحات أضيق من الأجساد نفسها.
تقدمت البروفسور كاترين. اصطفت طالباتها بتلقائية مدرسية والإجهاد يرتسم على وجوههن كما لو خرجن من قبو خانق:
- هذا جزء عابر من عذابات الجسد. ربما لم تتمكنَ من اقتناص الألم البشري بشكل صحيح، لكن لابد وأنكنَ توصلتن إلى فكرة ما في هذا العرض الضوئي وأعترف أنه عرض غامض بعض الشيء.
جلست البروفسور على كرسي ذي مسند عريض:
- والآن لا بأس من أن أعرف ماذا يدور في خواطركنّ !
ساد صمتٌ مرتبك قبل أن تبدده طالبة عربية:
- أتساءل بتحفظ: ألا تكون الجلادة الصغيرة نتاج حضارة سادية تحترف القتل والتعذيب وتتلذذ به بتشفٍ وعنجهية؟
ردت البروفسور:
- أريد أن أنوّه إلى أن الأسئلة القادمة ينبغي أن تنصب على الجسد موضوعاً وفكرة وعلاقة. أما أنت يا طالبتي فقد انطلقتِ من مضمون سياسي وأخلاقي، ولابأس أن أتفق معك جزئياً، لكن ليست الحاضنة

كلها هي من دفع هذه المجندة إلى هذا السلوك السادي: إنما المؤسسة العسكرية المتبجحة التي توهمت الانتصار في ميزوبوتاميا هي التي رسخت فيها هذا النوع اللاأخلاقي من التعامل مع سجناء عزّل، وفي قراءتي لها أنها طفلة غرّة كبر في داخلها الشعور الوطني بـ«الأنا» وتضخم إلى حد مرضي، فتوهمت كمؤسستها أن بإمكانها أن تلعب في ميدان الجسد الشرقي كما تريد، لاسيما وهي تعرف جيداً أن الرقيب العسكري متورط معها في لعبة السادية القذرة، وعموماً فإن الحاضنة الحضارية بأكملها لا ينطبق عليها هذا الوصف لا لأنني أنتمي إليها، لكن هذه هي الحقيقة. شكراً.

تقدمت فتاة آسيوية رشيقة بعينين واسعتين:

– ما هي حكمة الجلد العاري؟! ألا يمكن أن يكون الجلد محتشماً؟! أعرف أن سؤالي لا يخلو من سذاجة.

ردت البروفسور ووجهها يكتسي بالجدية:

– فكرة تعرية الجسد ليست جديدة. عندما يكون الجسد «أنا» أكون تلقائياً قد حميته من عوارض يومية كثيرة. الثياب التي نرتديها هي دفاعات أولية بسيطة لحماية الجسد.أي حماية الـ«أنا» فيه الذي هو أنا بالنتيجة ككائن بشري. وعند تشليحنا من أول دفاعاتنا الأولية، وهي أخلاقية بالمقام الأول، تسقط فكرة المقاومة الذاتية من أساسها، لاسيما والجلاد قوي ومتمكن ومتوحش بالضرورة. بسقوط الخط الأول أي الدفاع الذاتي المواجه، والجلاد يعرف هذا عند الإنسان الشرقي تحديداً، تنهار بقية الخطوط في الجسد.

رفعت طالبة محجبة يدها مستأذنة:

– ما هي وثيقة الاحتجاج التي يقدمها الجسد؟

مطت البروفسور شفتيها:

– الجسد بحامله. ومتى ما كان حامله قادراً على النجاة سيصل إلى منافذ العالم ويصل الجسد معه كوثيقة مؤكدة لسادية الجلاد.

تقدمت طالبة هندية وهي تزيح عن رقبتها قطعة الساري الزرقاء:
– حينما نشرَح الجسد في المشرحة الطبية نتعامل معه بآلية مفهومة ككتلة لحمية صامتة، لكن كيف يتعامل الجلاد مع الجسد الحي المكبَل؟ أعني هل يعرف الجلاد قيمة الجسد؟

انفرجت ابتسامة صعبة في وجه البروفسور كاترين:
– جسد المشرحة أدى دوره في الحياة وانتهى. في المشرحة ليست لدينا خريطة واضحة عن عذاباته وتجلياته المختلفة. المسألة هنا تختلف. الجلاد لا يفهم أن الجسد كائن حي. يتعامل معه وهو يحيله إلى الإنسان الذي يرتبط به كمجرم أو إرهابي أو لص أو متآمر فيريد انتزاع اعترافاته بالطرق كلها، وليس أقلها الجلد والصلب والتعرية والإهانة. مشكلة الجلاد، هنا في الفجيعة الميزوبوتامية مثلاً، أنه تعامل مع جسد حي، له تاريخ حي، وحاضر حي. ومستقبل حي، نسي الجلاد، أو بدقة لنقل إنه لا يعرف ثقافة هذا الجسد ولا حيويته ولا تاريخه الشخصي. لذلك عمد إلى أحط الأساليب وأكثرها دونية: مخالب وأنياب وكلاب وأعقاب سجائر ومجندات سافلات لا يفهمن ذكورة الجسد الشرقي. الجسد البشري صور مترابطة وزمن منفتح يعبُ من الجهات كلها. الجسد كمّ كبير من الإشارات السرية. الجلاد لا يعرف كل هذا وهذا سر هزيمته في نهاية الأمر..

نفس الطالبة تساءلت:
– بناء على ذلك هل إن الأجساد المهانة هنا هي بلا خطايا؟
– كل جسد خطّاء. كل جسد يحمل ترسانة من الأخطاء. المشكلة هنا أن الجلاد المحتل وصل إلى قناعة أخيرة أن كل أجساد البشرية تتشابه وتتعادل في الخطايا ومن ثم في الألم. وهذا غير منطقي. للجسد حضارته. جسد الجلاد له حضارة أيضاً. والحضارات لا تتشابه لكنها تلتقي في رؤوس أقلام في الأقل. الجلاد ظن أن جسده الأبيض هو خميرة الأجساد، فتماهى مع هذه الذات المنتفشة. وهنا أوقع نفسه في

ورطة أخلاقية ومأزق سياسي فهمتها مختلف الشعوب وتلقت شفراتها، ففقد هذا الجلاد براءته التي كان ينوي عولمتها إلى الجهات الأربع.

مدت طالبة أخرى يدها:

– هل نفهم أن الجسد الميزوبوتامي انتصر على جلاده؟

– يمكن القول بذلك وبلا تحفظ. أكرر أن الجلاد لم يفهم ثقافة الجسد الميزوبوتامي .

تساءلت طالبة أخرى:

– هل فوجئ الجلاد بالجسد الميزوبوتامي؟؟

– خسر الجلاد سمعته لأنه لم يفهم ثقافة الجسد كما قلت قبل قليل..

تقدمت طالبة إفريقية طويلة وكانت شفتاها الغليظتان تتساءلان:

– إذن كيف يمكن الانتصار على الجسد؟

زمت شفتيها وردت بحزم:

– بالموت . بالموت فقط. وهذا آخر سلاح يلجأ إليه الجلاد. هنا علينا أن نقرر هزيمة الجلاد بموت الجسد.

فتاة قصيرة بدت أكثرهنَ ارتياعاً تساءلت:

– ماذا رأيتِ في أجساد هؤلاء الشباب؟

– رأيتُ العذاب البشري وصراخه المحبوس. لكن هل هذا كل شيء ؟ لا. الجسد وعي. كائن ملتبس على جلاديه. يرى ويحسَ. يبكي ويتألم. يضحك ويسخر ويعشق. الجسد موطن الحواس ونافورة الحياة. الجسد طاقة عملاقة يجب ألا نتجاهلها. الجسد لاوعي أيضاً. في حالات الخطر الأخلاقي عندما يُنتهك ويُستفز، تتجلى فيه عبقرية دفاعية نادرة من الصعب أن يكتشفها الجلاد المدَعي. خذن مواطنتي إينكلاند فهي مثال سيئ على انتهاك قدسية الجسد واستفزاز لا وعيه، بغرض سحقه وخلخلة حواسه. الجسد كائن حي. لا ينسى. مستودع للذاكرة بلا شك. إينكلاند رسَخت ذكرى أليمة في عقل الجسد الميزوبوتامي.

طالبة تمتمت بنتيجة على شكل سؤال:

- أظننا سمعنا الصراخ المكبوت ولوعة السجين ومرارته.. هل رأيت مثلنا ذلك؟

- سمعت لسان الجسد يتكلم ويحتج ويعترض ويصرخ ويبكي. طيلة حفلة التعذيب لم يتعب لسان الجسد، وهذا واضح بالنسبة لي. لو يتعب لسان الجسد لمات الجسد.

انبرت شابة خليجية:

- هل في الجسد أسرار؟

- .. وشفرات. هذا سر صمود الجسد الميزوبوتامي رغم أنهم أذلَوه وخانوه وصعقوه.

السمراء التي تقف جوار الطالبة المحجبة تساءلت بتقشف:

- كيف نعرِّف شفرات الجسد؟

- لابد من أن تتأملن المشهد من جديد دون أن أكون معكنَّ. تأملنهُ بعيداً عن الدرس. تخلصن من أجسادكنَّ وسترين كم هو ضليع في فهم الجسد هذا الفنان الرافديني. أظنه أول من فهم إشكالية الجسد الوطني، ففلسفه مستعيناً بمنظومة تاريخية وفكرية وحضارية وأسطورية وثقافية عامة، تلك التي يبحث عنها جنود المارينز وقادتهم منذ أربع سنوات، لكنهم لم يجدوها.!

طالبة ميزوبوتامية وقد احمرَت عيناها:

- كيف يمكن أن نستنتج من خلال هذا المرأى السريع عذابات الجسد؟ أقصد كيف نشخصه على وجه الدقة، وكيف نصنِّف درجات تعذيبه؟

وقفت البروفسور كاترين ووجهها يكتسي بالصرامة نفسها:

- الجسد هو الرحم. شخصية الإنسان جسده. الجسد فكرة الإنسان. الجسد الكلي الذي وصفه ديكارت بأنه آلة من وضع إلهي، وأنها أفضل إحكاماً من كل الآلات، يفككونه الآن. العصا تفكك الجسد. الكلاب تفزز لا وعيه وطفولته. أعقاب السجاير تقلص مسافاته. الرعب الغامض والمتوقع يجتذب الشرايين والأوردة ويقلِّص من تدفق الدماء. الخوف

الغريزي من وحشية الجلاد يمدد المسامات لمزيد من الهواء. خمرة الثكنات تبث رسالتها المجنونة في ساعة متأخرة من الليل. الحرارة العالية جداً تفعل فعلها الحار في الجسد. من كل هذا ترين أجساداً متهدلة ومنقبضة ومنكمشة ومتغضنة ومنتفخة. مقهورة وحزينة وباكية. ترين أجساداً جافاها النوم منذ ليالٍ، تتعرض لضجيجٍ عنيف ساعات طويلة أو ترقد على مقربة من أنفاس كلب جائع و.. هكذا.

آخر الطالبات:

– هل ترين أن إعادة توثيق هذا السجن بهذا الشكل هو جزء من توثيق كارثة الجسد الميزوبوتامي الذي تعرض للانتهاك؟

– هناك سجون ومعتقلات في العالم لها من السمعة السيئة ما جعلها محفورة في ذاكرة البشرية. خذي المحارق النازية في ساكسون هاوزن وبوخونوالد في بولونيا، وهناك حتى الآن من يوثق جرائم النازية الهتلرية، وليس كثيراً على هذا الفنان أنْ يوثق محنة الجسد الوطني وبطريقة مبتكرة لا يريد الإفصاح عنها بالطرق التقليدية. لنقل بشكل أوضح إن الرافديني يقترح، كما أرى، نصباً عظيماً كَونه من معطيات هذا السجن الذي بات على لسان العالم؛ لاسيما الغرب، المتحضر منه، والذي ينظر إلى انتهاكات حقوق الإنسان نظرة كلها فزع. وأعتقد أن الرافديني، وبهذه الجدارية المعقدة، وضع لمسات منطقية لنصب مقترح يتوسط ميزوبوتاميا كي يبقى شاهداً كلياً على تحولات البلاد الدراماتيكية أثناء الاحتلال وربما بعده، ولكن بإزاحة النصب القديم الذي تعرض إلى دسائس سحرية وغرائبيات لا نفقه الكثير منها حتى الآن.

جائزة دبي الثقافية للابداع

الدورة الخامسة (٢٠٠٦-٢٠٠٧)

لجنة تحكيم جائزة القصة القصيرة

١) الناقد العراقي د. صالح هويدي

٢) الناقد السوري عزت عمر

٣) القاص المصري عبد الفتاح صبري

يسعدني ويسعد جميع العاملين في دار «الصدى» ومجلة «دبي الثقافية» أن نقدم الأعمال الفائزة في مسابقة «دبي الثقافية» التي تهدف إلى خدمة الحركة الثقافية العربية، وتضيف جديداً إليها؛ إيماناً منّا بأن التغيير للأفضل يبدأ مع واقع ثقافيّ جديد، ووعي ثقافي متفتح وقابل لفكر التعدّد، ومؤمن بأن الإنسان هو محور التنمية. وانطلاقاً من كل ذلك، تأتي مبادرتنا باحتضان الأقلام الجادة والمخلصة وإعطائها فضاءً جديداً ضمن أفق مفتوح للتفكير والعطاء والإبداع بشكل غير مشروط، أو مقيّد بأية قيود تحدّ من انطلاقته.



كتاب دبي الثقافية

سلسلة إصدارات غير دورية تصدر عن مجلة دبي الثقافية